الكسندر ديماس (الابن)

غادة الكاميليا

رواية

ترجمة

عمر أمين

تقديم وتحرير

حازم عبد الرحمن

الكتاب: غادة الكاميليا .. رواية

الكاتب: الكسندر ديماس (الابن)

ترجمة: عمر أمين

تقديم وتحرير: حازم عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ديماس ، الكسندر (الابن)

الصحافة في العراق/ غادة الكاميليا، ترجمة/ عمر أمين، تقديم وتحرير/حازم عبد الرحمن – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٩٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٣٩٠ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٥٣١٩ / ٢٠٢١

غادة الكاميليا

رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

"أشعر دائماً بأنني سأعود الى الحياة ثانية بعد موتي"... هذه الجملة كانت ترددها دائما "ماري دوبليسيس" خاصة قبيل وفاتها في صيف ١٨٤٦، وكان من يسمعها يستنكر أن تفكر فتاة جميلة مثلها في الموت وهي لم تكمل بعد عامها الثالث والعشرين، فلما مرضت فجأة واشتد مرضها كثر ترديدها لهذه المقولة أرجعوها إلى ما يسببه المرض من هذيان، لكنها لم تكن تهذي، ولم تكن تكذب، ومقولتها كانت وكأنها نبوءة سرعان ما تحققت، فقد ماتت "ماري"، وبعد موتها بعام واحد بعثت وعادت إلى الحياة، وما زالت تحيا إلى اليوم، ليس في صورتها الآدمية الفانية، بل كقيمة، وكشخصية أدبية كثيرا ما ألهمت الفنانين من صناع المسرحيات والأفلام في العالم أجمع.

بمجرد موتها انخرط عشيقها "الكساندر دوماس الابن" في نوبة بكاء حادة، وشعر بتأنيب ضمير تجاه حبيبته وعشيقته التي ظلمها، فقرر أن يكتب قصة حياتها في رواية، وهكذا خرجت "غادة الكاميليا" إلى النور بعد رحيل الشخصية الحقيقية بعام واحد، فكأنها بعثت فعلا من بعد موتها، وقد حققت الرواية نجاحا لم يحققه قبلها عمل أدبي آخر، فتعددت طبعاتها، وتعددت ترجماتها إلى كل لغات العالم، وتم اقتباسها في أعمال فنية عرضت على شاشات السينما و قاعات العرض المسرحي في كل أنحاء المعمورة،

وكان الأوبرالي العالمي "فيردي" هو أول من اقتبسها وذلك في أوبرا "لا ترافياتا".

وكانت "ماري دوبليسيس" واحدة من الفتيات الخادمات العاملات في البلاط الفرنسي، خلال المرحلة الأخيرة من الحكم الملكي هناك، وكان البلاط يومها مركزاً للباحثين عن الثروة، والانغماس في الملذات، وهما الهدفان الرئيسان للجميلة التي طهرها فيما بعد الحب.

وكانت ماري التي أصبحت في الرواية غادة الكاميليا، فتاة فائقة الجمال بالرغم من شحوبها البادي، ونحافتها النسبية، وكان أميز ما فيها شعرها شديد الطول حالك السواد، وعيناها الواسعتان، فوقع الكساندر دوماس الابن في عشقها منذ أن رأتها عيناه، وكان يشبهها دائما بأنها مثل تحفة فريدة أو أيقونة من الخزف الصيني، وأحبها بالرغم من أن بحثه وراء شخصيتها قاده إلى معرفة حقيقتها، وعرف أنها ولدت لأسرة ريفية فقيرة، عمل والدها مارين دوبليسيس كبائع متجول، وكان مدمنا للخمر، وكان يضرب والدتها باستمرار، وقد أدت معاملته السيئة لها إلى مرضها ثم رحيلها بينما ابنتها في السابعة من عمرها، وفي السنة التالية تخلى الأب عن ابنته فانتقلت للعيش مع أقارب لها، رعوها حتى وصلت إلى السنة الرابعة عشرة من عمرها، حينئذ عاد الأب مطالبا باسترداد ابنته، وتبين أنه يريد أن يبيعها لفرقة تمثيلية جوالة، ولما أفشل أقاربه الصفقة هرب بالفتاة إلى باريس، وهناك ألحقها للعمل في محل خردوات وكان يحصل على أجرها

ويسيء معاملتها، فهربت منه لتعيش وحيدة في مدينة لا تعرفها، وفيما بعد أهلها جمالها لأن تعمل مبكرا كفتاة ليل، فتعدد عشاقها وتمكن أحدهم ــ وكان من النافذين ــ من إلحاقها بالبلاط. وكان من أبرز عشاقها الكونت جوستاف الذي كان ينفق عليها ببذخ، والكونت ادوارد دي بيريجوا الذي تزوج منها لتصبح كونتيسة.

وقد أدمنت ماري الخمر مثل أبيها، وكانت تعشق اقتناء الملابس الثمينة والمجوهرات والخيول، ربما كرد فعل لنشأتها الفقيرة، وكانت تعشق زهور الكاميليا ومنها اشتق الكساندر دوماس الابن، اسم الشخصية الروائية التي انغمست في حياة لاهية، فضعفت صحتها ولم تحتمل كثيرا مرض السل، فماتت خلال عام من إصابتها به.

الروائي

كان الكساندر دوماس ابنا غير شرعي للروائي الشهير الكساندر دوماس (الأب)، وقد منح الأب اسمه كاملا لابنه الذي لقى معاملة شديدة القسوة من زوجة أبيه التي عذّبته بدنيا مرات كثيرة، كما حرمه والده من والدته، وكان الجميع يعامله كمنبوذ رغم اعتراف والده به، ورغم ما تلقاه من تعليم جيد..وكانت هناك أسباباً عديدة يمكن أن تدفعه إلى أن يكره أبيه الأديب الشهير، لكنه ظل يحترمه، واتخذه قدوة، وسار على دربه في طريق الكتابة، فكتب أشعاراً وروايات، منها رواية " الابن غير الشرعي" التي تعكس تأثره بوضعه الاجتماعي، ثم توجه الى كتابة المسرحيات التي

لاقت نجاحا كبيرا فألف ثلاثين مسرحية تم عرضها كلها على خشبات المسرح، وكلها طبعت في كتب، ولاقت اهتماما جماهيريا ونقديا كبيرا، لكن روايته غادة الكاميليا حققت نجاحاً غير مسبوق وأصبحت اسطورة أدبية.

وقد عاش الكاتب حياة لاهية كأبيه، وتعددت عشيقاته ومنهن ماري دوبليسيس، لكنه ابتعد عنها بسبب ضغط والده، وحين كتب "غادة الكاميليا" لم يعرف القراء أنه كان يكتب قصته الحقيقية التي تنتهي بموت حبيبته، بعد أن يهجرها وكيف كان تدخل والده في تلك العلاقة مريعاً، مما أدى لحرمانه منها، ويقال أنه حين شاهد الجمهور يبكي ألماً لنهاية المسرحية الحزينة، تأثر كثيراً وهو يتذكر امرأته التي تعامل مع حكايتها بشكل أخلاقي وكأنه مصلح اجتماعي، فهو يطرح مشكلة الذنب والتوبة ويطالب المجتمع بأن يصفح عن ضحاياه خصوصا من من النساء، ففي المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر، كانت الأخلاق الأرستقراطية تتعامل مع المرأة الخاطئة على أنها تشكل خطراً على تماسك الأسرة البرجوازية، حتى لو أعلنت توبتها وأقلعت عن آثامها، وهو في ذلك كان على العكس تماما من أبيه، فقد كان دوماس الابن مؤمنا بالرسالة الأخلاقية للأدب، وفي أعماله الانحراف طالب بإصلاح المجتمع، ودعا إلى حماية مؤسسة الزواج، كما دافع عن المرأة وحقوقها..

والروائي يمنح نفسه في الرواية اسم "أرمان دوفال" وهو الذي أحب مارجريت جوتييه، وعرض عليها الزواج بالرغم من كل ما عرفه عنها، لكن

الخبر يصل إلى أبيه، فيحاول أن يصرفه عنها، ولما يتمسك الابن بحبيبته يلجأ الأب إلى الحيلة، وبالرغم من إدراكه لصدق حبها لابنه إلا أنه يصر على أن يفرق بينهما، فيرجوها أن تهجره حرصا على سمعته وعلى مستقبله، وأن تنقذ عائلته من العار وترحم ابنته البريئة التي لن تجد زوجا إذا ارتبط شقيقها بفتاة ليل، تفكر مارجريت في كلامه، وترى أنه على حق باعتباره أب يخشى على مستقبل أسرته، فتقرر التضحية بحبها وتترك رسالة الى أرمان وتغادر المنزل.

لا يصدق أرمان أنها تخلت عنه كما قالت في الرسالة، فيعود إلى باريس ويبحث عنها، ليجدها برفقة عشيق جديد. فيغضب ويقرر الانتقام منها بأن يتخذ من صديقتها عشيقة، وأن يهينها ويعاملها باعتبارها مجرد فتاة ليل رخيصة تمنح المتعة بثمن.

تتألم وتشعر بالإهانة فتسافر إلى لندن طلبا للنسيان، وفي مدينة الضباب يصيبها مرض السل، فتعود الى باريس. ولما يشتد مرضها ويقل مالها يتخلى عنها أصدقاؤها، لتصارع المرض وحدها. وحينما يعلم دوفال والد أرمان بمرضها، يشفق عليها، ويزورها مواسيا، ثم يكتب رسالة لابنه يعترف فيها بالحقيقة.

يسرع أرمان بالعودة، لكنه يصل متأخرا، يجدها قد ماتت، ويجد تركتها معروضة للبيع في المزاد العلني من أجل سداد ديونها. يحصل على

مذكراتها فيعرف بعد فوات الأوان حقيقتها كاملة، وبهذه الخاتمة المأساوية لحياة الحبيبة يبدأ الكاتب كل من الرواية ثم المسرحية.

وعن ذلك يقول كتاب سيرته أن علاقة الحب التي جمعت بينه وبين "ماري دوبليسيس" من ناحية، وإشفاقه على أمه – التي أهملها أبيه بعدما أنجبت له ابنه وانصرف إلى عشيقات وزوجات غيرها – من ناحية أخرى هما ما دفعتاه إلى تبني مثل تلك الأفكار، فأمه وحبيبته كانت من بين ضحايا تلك الأخلاق الزائفة التي كانت سائدة وقتها في المجتمع الفرنسي.

أما الصورة التي تجميلها بدرجة مبالغ بها لفتاة الليل التائبة فأرجعها نقاده إلى شعوره بالذنب تجاهها، فتصديقه لخيانتها له، وما اتبعه معها من أساليب بغية الانتقام منها بتعذيبها نفسيا، قد أضعفت من مقاومتها للمرض فسرعان ما انهارت وماتت.

لذلك جعل منها في روايته التي صدرت في ١٨٤٨، ثم في المسرحية التي أعدها هو بنفسه في ١٨٥١، قديسة، وعندما أرسلت مارجريت جوتييه إلى القس، طالبة أن تعترف بخطاياها، قبل أن تموت، لحظتها تردد القس كثيرا.. وذهب إلى منزلها وهو غير راض. ولكنه بعد أن عرف حقيقتها، خرج من غرفتها بعد أن فاضت روحها، وهو مطرق الرأس، وقال عنها بأسى: "عاشت هذه المرأة زانية وماتت قديسة".

وبهذه المقولة يؤكد الروائي المغزى الأخلاقي لروايته، ويرد قارئها إلى المشكلة التي لا تزال المجتمعات الحديثة، في كثير من دول العالم، تعاني

منها، وهي مشكلة ارتكاب الإنسان للذنب وتوبة المذنب التي يقبلها الخالق ولا يقبل بها المخلوق.

حازم عبد الرحمن

الفصل الأول

أثناء سيري اليومي المعتاد في شارع لافيت استوقفتني لوحة كبيرة تحمل اعلانا عن مزاد علني لبيع قطع أثاث ثمين نادر. لم يذكر الإعلان اسم صاحب الأثاث. ذكر فقط أن البيع سيبدأ في يوم ١٦ من ذلك الشهر. بالمنزل رقم ٩ بشارع دانتان. وأن راغب الشراء يستطيع معاينة الأثاث خلال يومي ١٣ و ١٤.

ولأنني من هواة الأثاث الثمين النادر، قررت ألا أضيع الفرصة، إن لم يكن للشراء فللمشاهدة على الأقل، فتوجهت في صباح اليوم التالي إلى العنوان المذكور، فوجدت المنزل حافلا بالزائرين، على الرغم من أن الوقت كان مبكرا..

كانت ثيابهم الثمينة ومظاهر النعمة البادية عليهم والمركبات الفخمة التي تنتظرهم في الخارج.. كل ذلك كان يدل على أنهم من ذوي اليسار، ولكنهم مع ذلك كانوا ينظرون في كثير من الدهشة والإعجاب والاهتمام إلى ما يحيط بهم في ذلك المنزل من أسباب الرفاهية، ومظاهر الترف..

ولم ألبث أن كشفت سر هذه الدهشة وهذا الاهتمام، فقد فطنت بعد جولة قصيرة بين الغرف إلى أن المنزل كان لإحدى الغانيات الفاتنات ذوات المكانة البارزة في عالم اللهو والعبث ممن يعشن في كنف واحد أو

أكثر من النبلاء الأثرياء الذين ليست لهم بأولئك الفاتنات صلة الزوج أو الأب أو الأخ.

ولا شك أنه إذا كان في الوجود شئ تتحرق نساء الطبقة الراقية شوقا إلى معرفته، وشهوده، فهو ذلك الجو الخاص والنظام الداخلي في منازل أولئك الغانيات اللائي ينافسنهن في مظاهر الترف والرفاهية.. وينازعنهن الاسبقية في ميدان الأزياء، والأولوية في صدر المجتمع ويشغلن مثلهن المقصورات البارزة في دار الأوبرا وسائر المسارح. ويبهرن باريس بجمالهن الجرئ.. وحديث فتنتهن ومكائدهن ومغامراتهن.

وكانت الغانية التي نحن في منزلها قد توفيت فلا جناح إذن على المرأة الشريفة أن تدخل بيتها. وتنفذ إلى صميم مخدعها دون خوف أو وجل، لأن الموت طهر ذلك المخدع الذي كان عشا للغرام ووكرا للرذيلة والاثم. وإذا كان لابد من مبرر آخر لوجود النبيلات الشريفات في ذلك الوكر، فهو ذلك الاثاث الثمين الذي يباع بالمزاد العلني. والذي يستطيع كل انسان أن يراه ويبتاعه، دون أن يكون لزاما عليه أن يعرف صاحبه.

وإذن لم يكن عجيبا أن تمتلئ قاعات المنزل بسيدات الطبقة الراقية فطبيعي أنهن قرأن الاعلان. وطبيعي أنهن أردن شهود قطع الأثاث واختيار ما يروقهن منها تمهيدا لابتياعها. كل ذلك طبيعي لا عجب فيه ولكن ليس ثمة ما يمنع أولئك النبيلات الشريفات من إشباع غريزة الفضول التي تعتمل في نفوسهن.. والبحث هنا وهناك وسط مظاهر الترف والنعيم التي يرينها

حولهن، عن شئ من أسرار فتنة تلك الغانية التي سمعن عنها كثيرا، وتخيلن عنها أكثر مما سمعن.

ولكن من سوء الحظ أن هذه الأسرار قد ذهبت مع ربة الهيكل ولم يبق إلا ما قضى الموت بعرضه للبيع والشراء. وما أندر وما أثمن ما كان معروضا.. من أثاث منقطع النظير، وآنية بديعة، وتماثيل صغيرة وملابس وحلي.

أخذت أنتقل بين الغرف في أثر النبيلات الفضوليات اللائي سبقنني..

ونفذت السيدات إلى غرفة يتدلى على بابها ستار ثمين، فهممت بالدخول في أثرهن، ولكنهن خرجن فجأة، وعلى شفاههن ابتسامة غامضة.. وكان ما شهدنه في تلك الغرفة قد خدش ما يزعمنه لأنفسهن من الحياء والاحتشام..

وأثار ذلك فضولي، فدخلت الغرفة..

كانت غرفة ثياب الغانية التي اخترمها الموت.. وكل ما فيها ينطق بالنعيم الذي كانت ترفل فيها صاحبتها.. رأيت بالقرب من أحد الجدران طاولة كبيرة قد رتب فوقها كنز من أدوات الزينة.. وكلها من الذهب والفضة..

وكان من الواضح أن هذه الأدوات قد جمعت بالتدريج فهي ليست هدية عاشق واحد. ولما لم يكن ثمة غضاضة في أن أفحص أدوات امرأة

ذات سمعة معينة، فإنني ما لبثت أن اكتشفت أن كل أداة من هذه الأدوات الثمينة تحمل اسما وشعارا مختلفين..

نظرت إلى هذه الأدوات التي تمثل كل منها إحدى مغامرات تلك الغانية التعسة.. وقلت لنفسي إن السماء ولا شك قد ترفقت بهذه الفتاة المسكينة، فلم تمد في أجلها وتبسط في أيامها حتى تستوفي العقوبة العادية التي يفرضها الإثم على الخاطئات أمثالها.. بل سمحت لها أن تموت وسط مظاهر النعيم، وفي عنفوان مجدها وجمالها وشبابها.. قبل أن تدركها الشيخوخة التي هي الموتة المريرة الأولى لجميع الغانيات..

والواقع أنه ليس هناك ما يدعو إلى الرثاء والاشفاق كشيخوخة الاثم، ولاسيما في النساء، فالخاطئة المتقدمة في السن، لا تفخر بكرامة، ولا تثير اهتماما.. فهي فيما بقي من أيامها نهبة الحسرة والندم على ما فرط من اعوجاجها، وفساد تقديرها.. وسوء تصرفها فيما انتهى إليها من مآل عن طريق الاثم...

وقد عرفت في وقت ما عجوزا من هذا الطراز لم يبق لها من ماضيها غير ابنة تستمتع بمثل ما كان لها من جمال وفتنة. ولم تقل العجوز للفتاة "أنت ابنتي" إلا لتلتمس لشيخوختها مثل المساعدة التي بذلتها للفتاة في طفولتها.. وكانت الفتاة المسكينة –واسمها لويزا – طيعة لأمها، فانقادت لحياة البغاء التي روضتها عليها، كما كان يمكن أن تنقاد لو روضت على أية حياة أخرى..

وقتلت حياة الاثم في نفس الفتاة فضيلة التمييز بين الطيب والخبيث. ولست أنسى ما حييت منظر هذه المسكينة وهي تتجول في الشوارع في ساعات معينة، وأمها ترافقها، كما ترافق الأم الشريفة ابنتها، ولكن مع اختلاف الاعراض وكنت في ذلك العهد في مقتبل العمر، وعلى استعداد لقبول نواميس المجتمع على حالها، ولكنني أذكر بأنني لم أتمالك من الشعور بالامتعاض والاشمئزاز لهذا الاستغلال الاثيم لأقدس الصلات الانسانية..

يضاف إلى ذلك، أنني لم أر قط على وجه أطهر فتاة عذراء ما كنت أرى على وجه هذه الفتاة التعسة من مظاهر السذاجة والبساطة وشدة الاحتمال...

والظاهر، أن العناية الالهية كانت لا تزال تضمر لهذه الخاطئة المسكينة نوعا من السعادة فقد اكتشفت الفتاة في أحد الأيام أنها ستصبح أما.. واستحال كل ما بقى نبيلا وطاهرا في طبيعتها إلى غبطة لا توصف، وأصبح الجنين الذي يتحرك في أحشائها هو الملجأ الوحيد الذي تفزع إليه روحها المعذبة.. وتجد فيه السلوى والعزاء..

وكشفت الفتاة لأمها عن سرها..

وما حدث بعد ذلك بخجل سرده.. وربما كان من الأفضل ألا نسرده، لو أننا نعتقد بأنه من الخير في بعض الأحيان أن نميط اللثام عن ضروب الشقاء والتعاسة التي تعانيها هذه المخلوقات البائسات اللائي

نحكم عليهن دون أن نسمع دفاعهن.. ونحتقرهن دون أن نتغلغل في حياتهن..

قالت الأم لابنتها كلاما يحمر له وجه الأمومة، قالت لها أنهما لا يجدان قوت يومهما، فكيف إذا جاءهما ثالث، وبعد.. فما فائدة الأطفال؟... أفليس الاحتفاظ بالجنين مضيعة للوقت..؟

وفي اليوم التالي جاءتها بعجوز تعرفها، فقضت العجوز مع (لويزا) ساعة أو بعض ساعة..

ولزمت (لويزا) فراشها بضعة أيام.. ثم عادت إلى الشوارع ضعيفة شاحبة..

وبعد ثلاثة شهور تقريبا. عرف بعض الخيرين بهذه القصة المحزنة فأخذته الشفقة بالفتاة. وقرر أن يعني بها. وإن يرد إليها الصحة. ويردها إلى سواء السبيل.. ولكن ما استهدفت له الفتاة قبل ثلاثة شهور كان قد أثر على صحتها.. فلزمت الفراش بضعة أسابيع. ثم قضت نحبها.

أما الأم.. فلا تزال حية ترزق.. ولكن كيف؟

ذلك ما لا يعلمه إلا الله

عادت هذه القصة إلى ذاكرتي. وأنا أتأمل أدوات الزينة.. ولابد أنني استغرقت في التفكير وقتا طويلا، لأنني عندما أفقت من ذهولي وجدتني وحيدا في الغرفة.. وليس معي إلا أحد الرجال المكلفين بحراسة

الامتعة.وكان الرجل ينظر إلي خلسة.. ويرمقني بين الفينة والفينة بعين الحذر والريبة.. فدونوت منه. وسألته:

هل لك يا سيدي أن تذكر لي اسم الشخص الذي كان يقيم في هذا المنزل؟

فأجاب:

– هذا بيت الآنسة مرغريت جوتييه

وكنت قد رأيت هذه الفتاة مرارا فهتفت:

– ماذا تقول؟ هل ماتت مرغريت جوتييه؟

– نعم.. منذ ثلاثة أسابيع.

– ولماذا فتح بيتها لكل عابر سبيل؟

– ذلك لأن الدائنين يعتقدون أن هذه هي أفضل وسيلة للحصول على أضخم ثمن لامتعتها ومخلفاتها. والواقع أن عرض الأمتعة في مكانها الطبيعي وسط هذه المظاهر الخلابة.. من شأنه أن يضاعف اقبال المشترين.

– الدائنون! وإذن فقد كانت مدينة!

– نعم.. كانت مدينة بمبالغ طائلة..

– وهل يكفي ثمن أمتعتها لسداد ديونها؟.

– بل يكفي ويزيد على قيمة الديون..

– وإلى من تؤول الزيادة؟

– إلى أسرتها.

– وإذن فلها أسرة؟

– أظن ذلك.

فشكرت الرجل لأدبه.. وزالت شكوكه في نواياي فحياني باحترام. وانصرفت.

مسكينة تلك الفتاة! لابد أنها ماتت موتة محزنة.. فإن مثيلاتها لا يستمتعن بصداقة الأصدقاء إلا بشروط.. أهمها الصحة والجمال. امتلأت بالشفقة على مرغريت جوتييه. وقد يبدو ذلك للكثيرين غريبا. ولكني في الواقع أشفق على هذا النوع من النساء. فذات يوم رأيت شرطيين يقودان فتاة إلى قسم الشرطة. لا أعلم ماذا جنت؟ كل ما أعلمه أنني رأيتها تبكي.. وتقبل طفلة صغيرة يوشك اعتقالها أن يفرق بينهما. ومن المحتمل أن تكون قد اقترفت اثما.. ولكن شعرت أنها تحمل في أعماق نفسها أنبل عواطف الأمومة. فقررت من يومها ألا أصدر حكمي على أولئك النساء اعتمادا على المظاهر.

الفصل الثاني

عدت من رحلة طويلة دون أن أعلم بموت مرغريت جوتييه، إذ كان من الطبيعي ألا يذكر لي أصدقائي نبأ موتها.. كانت مرغريت جميلة حقا.. ولكن على الرغم من شهرة أولئك النساء في حياتهن.. فإن الانسان لا يسمع عنهن بعد موتهن إلا القليل.. فهن في الواقع شموس تغيب كما تشرق.. فلا يفطن اليهن أحد.. إلا وهي مشرقة، فإذا ماتت إحداهن في مقتبل العمر. ذاع نبأ موتها بين عشاقها جميعا في وقت واحد.. فيتبادلون عنها بعض الذكريات.. ثم يستأنفون حياتهم.. وفي مدينة لاهية كباريس تصبح الدموع عزيزة على أصحابها، فلا يسكبونها في كل مناسبة.. وبحسب آبائنا أن ينالوا من دموعنا ما يعادل الثمن الذي يدفعونه إلينا في شكل ميراث.

أما أنا فعلى الرغم من أن الحروف الأولى من اسمي لم تكن منقوشة على شئ من أدوات الزينة في غرفة مرغريت جوتييه.. فإن شفقتي الغريزية على هذا الطراز من النساء.. دفعتني إلى التفكير في أمرها أكثر مما تستحق.

تذكرت أنني رأيتها مرارا في حدائق الشانزلزيه، حيث كانت تذهب كل يوم في مركبة فخمة يجرها جوادان بديعان.. وتذكرت أنني كنت أميزها

بمسحة من الأناقة والنبل.. تفردت بها عن نساء طبقتها. وقد جرت عادة أولئك النساء.. إنهن إذا خرجن للنزهة.. اصطحبن معهن كائنا من كان.

ولما كان كل رجل يضن بكرامته أن تلوكها الالسنة.. وبمغامراته الليلية أن تصبح حديث الناس في كل مجتمع. وكانت أولئك النسوة يفزعن من الوحدة.. فإنهن اعتدن أن يصطحبن في مركباتهن زميلة من طبقتهن لا تملك مركبة مثلهن.. أو عجوزا شمطاء لا تخشى منافستها ويستطيع المتبذلون من الرجال أن يلجأوا إليها في طلب المعلومات من كل نوع.. عن الحسناء صاحبة المركبة.

ولكن مرغريت شذت على هذه القاعدة.. فكانت تذهب إلى (الشانزلزيه) وتنكمش في ركن مركبتها.. كأنها لا تريد أن يشعر بوجودها أحد. فإذا كان الشتاء.. التفت في معطف كبير. يحجب فتنتها. وإذا أقبل الصيف شوهدت في ثوب بسيط لا يلفت إليها الانظار.. وإذا وقع بصرها على واحد من أصدقائها العديدين. ابتسمت له ابتسامة لا يراها أحد سواه.. كابتسامة أية امرأة شريفة نبيلة في مثل هذه الظروف.

كذلك لم تكن مرغريت تتلكأ بمركبتها في ميدان الشانزلزيه كما تفعل مثيلتها.. بل كانت تقصد توا إلى الغابة.. وهناك فهبط من مركبتها.. وتسير بين الاشجار ساعة أو بعض ساعة.. ثم تعود إلى بيتها بأقصى سرعة جواديها الكريمين.

تذكرت كل ذلك عن مرغريت جوتييه. وأسفت لموتها كما يأسف الإنسان على فناء عمل فني منقطع النظير.

والواقع.. إنه يتعذر.. بل ويكاد يستحيل أن يصادف الإنسان امرأة أكمل جمالا من مرغريت..كانت طويلة القامة صغيرة الجسم. تعرف إلى درجة الاجادة كيف تخفي نحافتها البارزة.. بل وتعرف – بمهارتها في اختيار ثيابها – كيف تجعل من هذه النحافة شيئا فاتنا تحسدها عليه أترابها.وكان رأسها أعجوبة في ذاته.. فهو صغير جدا بقدر ما هو متناسب التقاطيع..

وإذا أردت الاحتفاظ بصورة وجهها فتناول القلم وارسم وجها بيضاويا منتظما.. وضع فيه عينين تتألقان تألقا غير عادي.. ثم ارسم بالقلم فوق العينين قوسين وظلل العينين بأهداب طويلة يترامى ظلها إلى الخدين.. وارسم بعد ذلك أنفا دقيقا مستقيما وفما رقيقا يفتر عن أسنان بيضاء كاللبن.. واصبغ الخدين بلون ناعم كلون الخوخة الناضجة التي لم تمسها يد انسان. فترى أمامك وجه مرغريت جوتييه.

أما كيف احتفظ الوجه – رغم إسراف صاحبته في اللهو والعبث – بتلك النضارة والدعة اللتين تحتكرهما وجوه العذارى والاطفال فذلك ما أسجله.. دون أن أحاول تعليله.

وكانت مرغريت شديدة الحرص على شهود العرض الأول في جميع المسارح فهي تقضي كل أمسيتها تقريبا في المسارح والمراقص. وحيثما

تعرض إحدى المسرحيات للمرة الأولى، تجد مرغريت جوتييه وثلاثة أشياء لا تفارقها. هي المنظار المكبر وحزمة من الحلوى. وباقة من زهور الكاميليا.

ولم يعرف على مرغريت أنها استعاضت يوما عن الكاميليا بزهور أخرى. فكان أن اشتهرت في كل باريس باسم " غادة الكاميليا ".

وقد علمت عنها حقائق أخرى يعرفها سائر المترددين على مجالس معينة.

علمت مثلا.. أنها كانت في وقت ما عشيقة شاب في مقتبل العمر من شباب الأوساط الراقية، وأنها كانت تعترف بذلك في صراحة.

وعلمت أنها رحلت إلى (بانير) منذ ثلاثة أيام. وقيل وقتئذ أنها تعاشر هناك دوقا أجنبيا متقدما في السن ولكنه واسع الثراء. وإن هذا الدوق حاول أن يردها عن حياة اللهو والعبث وآنس فيها ميلا وارتياحا إلى تحقيق هذه الرغبة..

وفيما يلي خلاصة ما ذاع في هذا الصدد:

حدث في الربيع منذ ثلاثة أعوام أن طرأ على سحنة مرغريت من الانقلاب. وعلى صحتها من الضعف ما حمل الأطباء على أن ينصحوا لها بالاستشفاء في (بانير)..وكانت ابنة الدوق الذي أشرت إليه تستشفي في ذلك المكان ولم تكن مصابة بمثل داء مرغريت فحسب. بل كان لها كذلك مثل قوامها وسحنتها. وبلغ من دقة الشبه بينهما أن كان الناظر يتوهم

أنهما توأمتان. كانت ابنة الدوق مريضة بالسل في الطور الأخير فما لبثت أن توفيت عقب وصول مرغريت إلى بانير.

وقضى الدوق العجوز بضعة أيام متسكعا في (بانير) كما يتسكع الانسان حول القبر الذي يضم أعز أحلامه. وحدث ذات يوم أن صادف الدوق مرغريت فخيل إليه أنه يرى ظل ابنته التي انتزعها الموت من أحضانه. فذهب إليها والدموع تترقرق في عينيه. وضم يدها بين يديه وطبع قبلة على جبينها وتوسل إليها – دون أن يعرف شيئا عنها – أن تسمح له بزيارتها وأن يحبها كما يحب أنموذجا حيا لابنته العزيزة..

وكانت مرغريت وحيدة في (بانير) وليس هناك ما يهدد سمعتها إذا صادقت ذلك الشيخ.. فلم تتردد في إجابة الدوق المسكين إلى سؤاله.

ولكن كان في (بانير) أناس يعرفون مرغريت.. فجعل هؤلاء الناس همهم أن يكشفوا للدوق عن حقيقتها.. وكانت صدمة محزنة للشيخ المسكين.. فقد انتهت عند ذلك وجوه الشبه بين ابنته ومرغريت.. ولكن تحذير الناس جاء متأخرا بعد أن عرف الشيخ في صحبة مرغريت راحة النفس وهناء القلب.. وأصبحت الفتاة بالنسبة إليه من ضروريات الحياة.. لم يعتب عليها.. إذ لم يكن من حقه أن يعتب.. ولكنه سألها إن كانت ترضى عن حياتها الأولى بديلا.. وعرض عليها ما تشاء لقاء هذه التضحية.. فوعدت بتحقيق رغبته.

ويجب أن نلاحظ ان مرغريت كانت في هذه الفترة عليلة سقيمة وقد بدأت تشعر بأن حياة اللهو والعبث والرذيلة هي أساس علتها وسقمها.

واستولى عليها نوع من الوهم جعلها ترجو أن ترد عليها العناية الالهية صحتها. وتحفظ لها جمالها.. لقاء ندمها وتوبتها.. إذا ندمت وتابت..

والواقع.. أن المياه المعدنية في (بانير) والرياضة المنتظمة والحياة الهادئة الوادعة.. والراحة المستمرة.. كل ذلك ما لبث أن رد عليها صحتها.. وقوتها.ثم عادت مرغريت إلى باريس برفقة الدوق.. وراح الدوق يزورها كل يوم كما كان يفعل في بانير.

ولاحظ الناس الصلة بينهما.. ولم يعرفوا أصلها أو طبيعتها.. ولكنهم لم يختلفوا في تأويلها، وكان الدوق مشهورا بسعة ثروته.. فأصبح مشهورا بفسقه وتبذله.

والواقع... أن الناس ظنوا في هذه الصلة كل الظنون.. إلا الحقيقة.. والحقيقة هي أن شعور الشيخ الثاكل نحو الغانية العاشقة كان من أطهر المشاعر الأبوية وأنبلها فلم يسمعها قط كلمة تخجل ابنته من سماعها.

وليس في نيتي أن أجعل من بطلة هذه القصة غير من هي. فأقول أنها لم تبر بوعدها للدوق إلا ريثما انقضت أيام الهدوء والسكينة والاستجمام في (بانير) فلما عادت إلى باريس. أحست – وهي التي ألفت العبث واللهو والحياة الطروبة الصاخبة – بأن الوحدة والسكينة سيقتلانها

ضجرا وملالة.. ثم هبت عليها أنفاس الحياة السابقة. فلفحت وجهها وقلبها. وأيقظت مشاعرها الراكدة.

يضاف إلى ذلك أنها عادت إلى باريس أكثر جمالا وأشد فتنة. وأنها كانت لا تزال في العشرين من عمرها. وإن داءها الذي هجع ولم يستأصل. كان لا يزال يحرك في أعماقها تلك الغرائز الجامحة التي تلازم أمراض الرئة.

لكل ذلك.. تعذر على مرغريت أن تخلد إلى الوحدة أو العزلة والسكينة في باريس..

وفي أحد الأيام. علم الدوق من بعض أصدقائه ممن يهمهم إبعاده عن مرغريت. أن الفتاة قد عادت سيرتها الأولى. وأنها تستقبل الزائرين في بيتها في ساعات معينة بعد انصرافه. وقد تمتد إقامتهم إلى الصباح.

ولما سألها عن حقيقة الأمر اعترفت له بكل شئ. وقالت لا تقوى على حياة الجمود والعزلة وانكار الذات كما وعدت، وبالتالي لا تستطيع الاستمرار في قبول الهبات التي يسبغها عليها مقابل وعد عجزت عن الوفاء به.

فغادرها الدوق ومر أسبوع دون أن يراها، ثم عاد إليها في اليوم الثامن، واعدا بألا يعود إلى ازعاجها ولومها مهما كانت الظروف.

الفصل الثالث

في اليوم المحدد لبيع الأثاث، ذهبت إلى شارع "دانتان" فسمعت صوت "الدلال" واضحا. كان المنزل غاصا بالناس وبينهم بعض الغواني وعدد كبير من نساء الطبقة الراقية جئن في الظاهر للشراء. وفي الحقيقة للاجتماع عن كثب بأولئك الغانيات اللاتي يتظاهرن باحتقارهن.. وهن يحسدهن سرا.

رأيت الدوقة "ف" واقفة جنبا إلى جنب مع الآنسة "أ" التي أصبح بيتها كعبة للعشاق.. ورأيت المركيزة "ت" تتردد في ابتياع أداة من أدوات الزينة تنافسها فيها مدام "د". أشهر الزوجات الخائنات في باريس. ورأيت الدوق "س" الذي يعتقد الناس في باريس أنه ينفق كل ثروته على غانيات مدريد.. ويعتقد الناس في مدريد أنه يبعثر أمواله على غانيات باريس.. وهو في الواقع لا ينفق معشار ايراده هنا أو هناك..

كان الدوق واقفا يتحدث إلى مدام "هـ" الكاتبة المشهورة.. ويختلس النظرات في ذات الوقت إلى مدام (ن) المرأة الرشيقة التي ابتكرت لثيابها اللون الأزرق السماوي.. ورأيت الآنسة "ر" الموسيقية البارعة التي احتلت بمواهبها مكانة دونها المكانة التي نالتها أولئك النبيلات بوفرة أموالهن أو نالتها أولئك الغانيات بوفرة مغامراتهن، وقد جاءت بدورها – رغم شدة البرد – لابتياع شئ من مخلفات مرغريت جوتييه. وغير هؤلاء وأولئك ممن

لا يتسع المقام لذكرهم. وقد اجتذبتهم جميعا رغم تباين مراكزهم في الهيئة الاجتماعية شهرة المرأة التي يباع أثاثها بالمزاد العلني.

كانوا جميعا مرحين ممتلئين نشاطا وحيوية.. وعلى الرغم من أن بعضهم كانوا يعرفون مرغريت. فإن واحدا منهم لم يذكرها بكلمة واحدة. وانبعث من هنا وهناك رنين الضحكات. وارتفع صوت "الدلال" فوق جميع الأصوات. وعبثا حاول التجار الذين جاءوا بقصد الشراء حمل الحاضرين على التزام الهدوء والسكينة.. وفي الواقع.. لم أر في حياتي اجتماعا مختلف العناصر، شديد الجلبة كذلك الاجتماع، ولم أتمالك نفسي من الشعور بالأسى عندما سمعت دوي الضحكات في ذات الغرفة التي لفظت فيها تلك المخلوقة المسكينة أنفاسها الأخيرة منذ أيام معدودة..

وكان غرضي مجرد التسلية لا الشراء.. فذهبت أتأمل وجوه الدائنين الذين يباع الأثاث لحسابهم. والذين كانت أساريرهم تنبسط كلما بيعت إحدى القطع بثمن أعلى من الذي قرروه لها.

كانوا جميعا من التجار الشرفاء الذين استثمروا أموالهم في "بغاء" تلك المرأة التعسة. وربحوا من التعامل معها أكثر من مائة في المائة. ثم أزعجوها في ساعتها الأخيرة بالمطالبة بديونهم المزعومة. وقد جاءوا الآن بعد موتها لجني ثمار مضاربتهم وتحصيل فائدة أموالهم التي استردوا قيمتها مرارا فما أحكم الاقدمين الذين كانوا ينسبون التجار إلى طبقة اللصوص!

بيعت الثياب والحلي وأدوات الزينة بسرعة مدهشة.. ولم يكن في هذه الأشياء ما يهمني الحصول عليه.. فانتظرت صابرا.. إلى أن صاح الدلال:

ها هي نسخة من كتاب "مانون ليسكو" مجلدة تجليدا أنيقا.. وفي صفحتها الأولى بضع كلمات. والثمن الأساسي عشرة فرنكات.

فقال قائل بعد صمت طويلا:

– اثنا عشر فرنكا.

فقلت:

– خمسة عشر فرنكا.

ولا أدري لماذا أردت الحصول على هذا الكتاب.. ولعل "الكلمات التي في صفحته الأولى" هي ما أغرتني بشرائه.

صاح الدلال:

– خمسة عشر فرنكا.

فقال الرجل الذي تقدم أولا للشراء:

– ثلاثون فرنكا.

وكان صوت الرجل ينم عن التحدي فقلت:

– أربعون

– خمسون

– ستون

– سبعون

فصحت بعزم:

– مائة فرنك

فساد صمت عميق. ونظر إلى القوم في فضول ولا شك أن لهجتي قد أقنعت منافسي بأنني مصمم على الحصول على هذا الكتاب مهما كان الثمن.. فأحنى قامته باحترام وقال:

– إنه لك يا سيدي.

وهكذا أصبح الكتاب من حقي، ثم أشفقت أن تسوقني حرارة المنافسة على شئ آخر مثل هذا الاسراف.. فتركت عنواني للدلال وانصرفت.. دون أن ألقي نظرة أخرى على القوم، لمعرفة مدى التأثير الذي تركه في نفوسهم أقدامي على دفع مائة فرنك ثمنا لكتاب أستطيع ابتياعه من أية مكتبة بمعشار هذا الثمن.

وبعد ساعتين أرسلت في طلب الكتاب.. وتصفحته.... ووقع بصري في الصفحة الأولى على هذا الاهداء مكتوبا بخط أنيق: "مانون تقدم خضوعها لمرغريت"

الامضاء

أرمان ديفال

وسألت نفسي: ما معنى كلمة "خضوعها؟"

هل رأى مسيو ارمان ديفال أن "مرغريت" تفوق "مانون" في ضروب الغواية والعبث حتى تقدم إليها مانون فروض الخضوع؟!

أم رأى أنها تفوقها في شدة الحساسية.. ونبل العاطفة. فاستحقت منها هذا الخضوع؟

كان الافتراض الثاني أقرب إلى الاحتمال.. أما الافتراض الأول فإنه قحة لا يمكن أن تكون مرغريت سمحت بها.

وشغلتني شئوني الخاصة عن هذا الموضوع. ورحلت عن باريس.

ولكني قرأت كتاب "مانون ليسكو" للمرة الثانية. حتى صار يخيل إلي أنني قابلت هذه المرأة شخصيا. وعرفتها حق المعرفة. وشعرت بما هنالك من وجوه الشبه بين مصير مانون وخاتمة مرغريت وأحسست بالشفقة. بل والعطف على الفتاة التعسة التي أخذت هذا الكتاب من مخلفاتها.

وقصة مانون – كما وصفها الأب بريفو – هي قصة خالدة لفتاة حسناء. أحبت الشيفالييه دي جريو. ثم كان من ولع الفتاة بمظاهر الترف والنعيم. وادقاع الشاب وفقره. ما حمل العاشقين على ابتزاز المال من نبيل فاسق وقع في حبائل مانون ثم شعر النبيل بما هنالك فاستخدم نفوذه حتى أبعد مانون إلى أمريكا. حيث كانت ترسل البغايا والساقطات. وهناك ماتت الفتاة التعسة من شدة البرد والتعب.

قرأت هذه القصة مرارا كما قلت.. ولم أتمالك من المقارنة بين مصير مانون.. ونهاية مرغريت.

لقد ماتت مانون في الصحراء حقا.. ولكنها ماتت بين ذراعي الرجل الذي أحبها بكل كيانه.. فحفر لها الرجل قبرها بيديه.. وأرواه بدموعه.. ثم دفنها.. ودفن قلبه معها. أما مرغريت، وهي خاطئة ضالة كمانون.. ولعلها اهتدت أخيرا كما اهتدت مانون – فإنها ماتت وسط النعيم.. وفي ذات الغرفة التي كانت هيكلا لفجورها.. ولكنها ماتت وقلبها في صحراء أشد افتقارا واجدابا من الصحراء التي ضمت جثمان مانون. والواقع أن مرغريت – كم علمت ممن يعرفونها – لم تجد من يسمعها كلمة عزاء أو ترفية طيلة الشهرين اللذين قضتهما في فراش المرض قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وتحولت أفكاري وتأملاتي من مانون.. ومن مرغريت. إلى فتيات أعرفهن.. ومازلت أراهن مسرعات بقلة اكتراث.. وهن مغمضات العيون.. وعلى شفاهن ابتسامة.. في الطريق إلى موت محفوف بالتعاسة والوحدة..

فما أشقى أولئك المخلوقات.. إنهن محرومات من الحب والعطف على السواء.

نحن نشفق على الأعمى الذي لم ير قط ضوء النهار. ونشفق على الاصم الذي لا يسمع قط أنغام الطبيعة.. ونشفق على الأبكم الذي لم يعبر عن احساساته ومشاعره. ولكننا ممنوعون – بحكم التقاليد الجائرة

الجوفاء – من أن نشفق على عمى القلب.. وصمم الروح.. وجمود الضمير.. تلك العاهات التي تذهب بعقول هذه المخلوقات التعسة وتعمي بصائرهن عن الفضائل الانسانية.. وتصم آذانهن عن سماع كلام الله.. وتعقل ألسنتهن عن النطق باللغة الطاهرة النقية.. لغة الإيمان والحب الصحيح.

لقد خلق "فيكتور هوجو" شخصية "ماريون ديلوم".. وخلق "ديلوم" شخصية (بورنريت).. وتكلم "ديماس" عن (فداندا) ولم يضن المفكرون والشعراء في الأجيال السابقة بالعطف على هذه الطبقة التعسة من النساء. وحدث في كل زمان ومكان أن بعض العظماء ردوا إلى بعضهن سواء السبيل.. بأن أوقفوا عليهن عطفهم ورعايتهم.. بل وأعطوهن كذلك اسماءهم. فعلى الذين يصادفون أولئك السائحات الباسلات أن يبسطوا إليهن يد المساعدة، وأن يذيعوا على الملأ أنهم صادفوهن.. فإنهم بإذاعة هذه الحقيقة يرشدون الأخريات إلى سواء السبيل وليس يكفي أن نضع على طريقي الحياة لوحتين تكتب عليهما (هذا طريق الخير) أو (هذا طريق الشر).. ثم نقول لعابر السبيل "اختر لنفسك ما يحلو". بل يجب أن نهدي العابرين الذين ضلوا وانخدعوا إلى المسالك التي توصل من الطريق الثاني إلى الطريق الأول. وأن نعمل بالأخص على تيسير هذه المسالك وإزالة العقبات منها.

لقد كان السيد المسيح يعطف أشد العطف على النفوس التي جرحتها الشهوات الدنيوية.. وكان يشفي هذه الجروح ببلسم من صديدها.. أفلم يقل لمريم المجدلية "سيغفر لك الكثير لأنك أحببت كثيرا"؟ فلماذا نأخذ بتقاليد هذا المجتمع الذي يشتد ويقسو لكي يبدو قويا؟ ولماذا نتنكر لهذه النفوس الدامية التي يمكن تطهيرها من صديد الماضي ولا تحتاج جراحها إلا للمسة واحدة من يد كريمة فتبرأ وتندمل..؟!

الفصل الرابع

حقق المزاد مائة وخمسين ألف فرنك اقتسم الدائنون ثلثيها. بينما الباقي كان من نصيب أخت مرغريت بصفتها وريثتها الوحيدة. ولم تكن قد رأت مرغريت منذ سبعة أعوام.

ودعيت الأخت إلى باريس لتسلم الميراث. ولشد ما كانت دهشة أصدقاء مرغريت حين أبصروا في أختها فتاة ريفية ساذجة بدينة لم يسبق لها أن غادرت مسقط رأسها. وسارعت بالعودة إليه محملة بثروة طائلة. ورددت باريس – مركز الفضائح – هذه الحقائق الأخيرة عن مرغريت وأختها. ثم بدأت تسدل ستار النسيان على الغانية التي كانت ملء الأفواه. وأوشكت بدوري أن أنسى. حين حدث فجأة حادث جديد حمل إلي تاريخ مرغريت كله..

ففي صباح أحد الأيام.. سمعت طرقا على باب شقتي. فذهب الخادم إلى الباب. وعاد يحمل إلى بطاقة، ويقول إن صاحبها يرغب في التحدث إلي. نظرت إلى البطاقة فوجدت فيها هذا الاسم "أرمان ديفال" وسرعان ما تذكرت الصفحة الأولى من كتاب مانون ليسكو، وتساءلت: ترى ماذا يريد مني هذا الشاب الذي أهدى ذلك الكتاب إلى مرغريت؟

وأمرت الخادم أن يدعوه للدخول. وما هي إلا لحظة حتى دخل شاب طويل القامة شديد امتقاع الوجه يرتدي ثوب سفر فهمت من الغبار الذي يعلوه أن صاحبه لم يستبدله منذ بضعة أيام، بل ولم يفكر في إزالة الغبار عنه منذ وصوله إلى باريس. ولم يحاول مسيو ديفال اخفاء تأثره وانفعاله. فقال والدموع تملأ عينيه:

– سيدي.. أرجو معذرة عن تطفلي بزيارتك في هذه الثياب الرثة.. فإن رغبتي في مقابلتك بأسرع ما يمكن جعلتني أضن بقضاء بعض الوقت في الفندق الذي احتجزت فيه غرفة لاقامتي. وقد جئت إلى هنا مباشرة، لألحق بك قبل أن تبرح بيتك.

فرجوته أن يجلس بالقرب من الموقد.. فجلس. وأخرج من جيبه منديلا جفف به عينيه.

قال وهو يبتسم بحزن:

–لا شك أنك لا تستطيع أن تفهم لماذا يأتي رجل مجهول فيطلب مقابلتك في مثل هذه الساعة المبكرة.. وهو يرتدي مثل هذا الثوب ويبكي بكاء الأطفال؟ ولكني رجل طحنه الحزن يا سيدي.. وقد جئت أطلب على يديك خدمة عظيمة.

– تكلم بحق السماء يا سيدي. واعلم أنني سأكون سعيدا إذا استطعت خدمتك.

– أعتقد أنك شهدت بيع مخلفات مرغريت جوتييه.

واشتد به التأثر والانفعال عندما ذكر هذا الاسم. فأخفى وجهه بين كفيه وانفجر باكيا.

استطرد:

– أخشى أن يبدو سلوكي في عينيك مدعاة للسخرية.. ولكني أرجو معذرتك.. وأؤكد لك أنني لن أنسى ما حييت سعة صدرك وعنايتك بالاصغاء إلي.

فأجبت وأنا أشعر باشفاق حقيقي على هذا الشاب الحزين:

– سيدي.. إذا كان من شأن الخدمة التي تعتقد أنني أستطيع أدائها أن تخفف حزنك وألمك.. فأرجو أن تذكرها في الحال.. وسيكون من دواعي سروري أن أجيبك إلى ما تطلب.

فسأل:

– هل ابتعت شيئا من مخلفات مرغريت جوتييه؟

– نعم.. إنني ابتعت كتابا.

– كتاب "مانون ليسكو".

– هو ذاك.

– وهل ما زلت تحتفظ بهذا الكتاب؟

– إنه في مخدعي.

فبدت على وجهه علامات الارتياح... وراح يشكرني كما لو كان احتفاظي بهذا الكتاب هو الخدمة التي جاء يطلبها.ونهضت إلى مخدعي.. وجئت بالكتاب. ووضعته بين يديه. فقال بعد أن ألقى نظرة على الصفحة الأولى.

– نعم.. هذا هو الكتاب..

وانحدرت من عينيه دمعتان كبيرتان.. سقطتا على تلك الصفحة.

ثم رفع رأسه.. وقال دون أن يحاول اخفاء دموعه:

– أرجو أن تنبئني يا سيدي.. هل تعلق على هذا الكتاب أهمية خاصة؟!

– ولم هذا السؤال!؟

– لأنني أريد أن أرجوك في أن تسمح لي به.

فأجبته:

– معذرة عن فضولي يا سيدي.. ولكن، هل أنت الذي أهديت هذا الكتاب لي مرغريت جوتييه؟.

– نعم..

– إذن فالكتاب لك يا سيدي.. فخذه فإني سعيد بأن أرده إليك..

فقال في شئ من الحيرة:

– ولكن يجب أن تسمح لي على الأقل بأن أرد إليك الثمن الذي دفعته.

– أرجوك أن تقبل الكتاب يا سيدي.. أما ثمنه فكان من التفاهة بحيث لا أستطيع الآن أن أذكره..

– إنك دفعت مائة من الفرنكات ثمنا له يا سيدي..

فملكتني الحيرة بدوري وأجبت:

– هذا صحيح.. ولكن كيف علمت؟!

– الأمر بسيط فإنني كنت أرجو الوصول إلى باريس في الوقت المناسب قبل البيع.. ولكني في الواقع لم أصل إلا هذا الصباح. ولما كنت مصمما على الحصول على شئ من مخلفاتها. فإنني أسرعت إلى الدلال وطلبت إليه أن يسمح لي بالاطلاع على قائمة الاشياء التي بيعت وأسماء الاشخاص الذين ابتاعوها.. ووجدت أنك الذي اشتريت هذا الكتاب فقررت أن أرجوك في النزول عنه إلي. وإن يكن الثمن الذي دفعته قد أوقع في روعي أنك لابد أن تعلق على الكتاب أهمية شخصية قد تمنعك من التفريط فيه..

وفهمت من هذه العبارة أنه يخشى أن أكون قد عرفت مرغريت كما كان هو يعرفها. فأجبت لكي أزيل شكوكه:

– إنني لم أعرف الآنسة جوتييه إلا شكلا واسما وقد ترك موتها في نفسي الاثر الذي يتركه عادة موت الصبيبة الحسناء في نفس شاب اعتاد أن يعجب بجمالها وفتنتها، ولذلك رغبت في شراء شئ من أمتعتها.. ووقع اختياري – لا أعلم لماذا – على هذا الكتاب.. ودفعت فيه هذا الثمن على سبيل العناد تحديا لمنافس كان يريد الحصول عليه..والكتاب – كما قلت – تحت تصرفك فأرجوك في قبوله عربونا لصداقة أرجو أن تتوثق أواصرها بيننا في المستقبل

فأجاب أرمان وهو يشد على يدي:

– ليكن ذلك يا سيدي.. إنني أقبل هذا العربون وسأذكر فضلك وكرمك ما حييت.

ووددت لو ألقي عليه بضعة أسئلة عن مرغريت لأن الكتاب الذي أهداه إليها.. واهتمامه بالحصول على شئ من مخلفاتها كل ذلك أثار فضولي ولكني خفت أن الحف عليه في السؤال فيعتقد أنني رفضت ثمن الكتاب لأستبيح لنفسي الحق في التطفل على شؤونه اعتمادا على وفائه وامتنانه.

وأكبر ظني أنه أدرك ما يدور بخلدي، لأنه قال:

– هل قرأت هذا الكتاب؟

– بل قرأته مرارا..

– ما قولك في الكلمات التي كتبتها في الصفحة الأولى؟

– إنني فهمت لأول وهلة أنك لمست في تلك الفتاة التعسة ما يرقى بها فوق مستوى طبقتها. ولم يخطر ببالي قط أنك قصدت بهذه العبارة شيئا من الهزء والسخرية.

– أصبت يا سيدي.. فقد كانت هذه الفتاة ملاكا كريما دونك هذه الرسالة فاقرأها.

وقدم إلي رسالة تدل أطرافها على أنها نشرت وطويت ألاف المرات.. بسطت الرسالة بين يدي. وقرأت فيها ما يلي:

"عزيزي أرمان"

"تسلمت رسالتك.. وأحمد الله على أنك لا تزال كريما كعهدي بك" نعم يا صديقي.. إنني مريضة بداء يستحيل برؤه. ولكن أود لو يمتد بي الأجل حتى أسعد مرة أخرى بضغط اليد الكريمة التي كتبت الرسالة التي تسلمتها في التو واللحظة. وكتبتها بلغة تكفي في ذاتها لشفائي. إن كان لعلتي دواء يشفيها.

"ولكن لا أمل لي في لقائك مرة أخرى، لأنني أقرب ما أكون إلى الموت.. وبيني وبينك مئات المراحل.

"يا صديقي المسكين.. إن مرغريت التي عرفتها فيما مضى قد تبدلت تبدلا محزنا، وربما كان من الخير ألا تراها أبدا فذلك أفضل من أن تراها كما هي الآن.

"تسألني أن أصفح عنك. وإني أصفح عن طيب خاطر. فإن ما أصابني من عسفك لم يكن إلا دليلا على فرط حبك.

"إنني ألازم الفراش منذ شهر. وأوقف بعض الوقت في كل يوم على كتابة يومياتي منذ افترقنا، وسأواصل الكتابة حتى أعجز عن حمل القلم..

"فإذا كان يهمك أمري حقا يا ارمان، فاقصد إلى (جوليا ديبار) عقب عودتك إلى باريس. فتقدم إليك هذه اليوميات ومنها تعلم سر تحولي عنك وأسبابه.

"ومتى انتهت إليك يومياتي. فلا تشكرني عليها. فإن كتابتها كانت تذكرني يوميا بأهنأ ساعات حياتي، فتخفف الذكرى من آلامي، وبحسبك أن تجد فيها ما يبرر سلوكي وبحسبي أنني وجدت في كتابتها ترفيها وسلوى.

"ولقد كنت أود أن أترك لك شيئا من متاعي تذكرني به ولكن كل أمتعتي قد حجزت وأصبحت لا أملك شيئا حتى الثياب التي أرتديها..

"هل تفهمني يا صديقي؟

"إنني أدنو من الموت، واسمع وأنا طريحة الفراش وقع خطوات الرجل الذي أقامه الدائنون في بيتي لحراسة أمتعتي حتى لا ينقل منها شئ وحتى لا يبقى لي شئ إذا حدث ونجوت من الموت...

"على أن كل ما أرجوه هو أن يرجئوا البيع قليلا حتى يقضي الله في بقضائه.

"إن هؤلاء الناس لا رحمة في قلوبهم.. ولكن لا. هذه عدالة السماء لا تلين ولا تهمل.

"وإن لم يبق لك يا صديقي إلا أن تشهد البيع وتشتري بنفسك شيئا من متاعي.. فإنني إذا خبأت لك شيئا مهما كان تافها ثم اكتشف، فقد لا يتردد القوم في اتهامك بالاستيلاء على شئ محجوز..

"أواه.. ما أتعس هذه الحياة التي أوشك على الخروج منها؟

"كم أود لو تترفق بي السماء فتسمح لي بأن أراك مرة أخرى قبل أن أموت!! ولكني أرجح أنه يتعين علي الآن أن أودعك.. فعفوا يا صديقي إذا كنت لا أطيل الكتابة إليك فإن المرض هد قواي.. وأصبعي عاجزة عن توجيه القلم.

"مرغريت جوتييه"

والواقع... إن الكلمات الأخيرة كانت مضطربة لا تكاد تقرأ مضمونها في ذاكرته بينما كنت بسبيل قراءتها.. لأنه قال وهو يتناولها:

– من ذا الذي يصدق أن كاتبة هذه الرسالة فتاة تنتمي إلى تلك الطبقة من النساء..؟

وأمضته مرارة الذكرى.. فنظر إلى الرسالة طويلا. ثم رفعها إلى شفتيه. استطرد:

– كلما فكرت في أنها ماتت دون أن أراها.. وفي أنني لن أراها أبدا مرة أخرى.. وكلما فكرت في أنها قد فعلت من أجلي، أكثر مما تفعل الأخت من أجل أخيها.. كلما فكرت في كل ذلك شعرت بأنني لن أغفر لنفسي أنني تركتها تموت هكذا.. نعم إنها ماتت.. ماتت وهي تفكر في.. وتكتب لي.. وتردد اسمي... فيا لها من مسكينة!

ودفن وجهه بين يديه وبقى كذلك لحظة ثم استطرد:

– قد يعيب على الناس أن أندب موت فتاة كمرغريت.. ولكن الناس لا يعلمون كم تألمت لأجلي. وكم قسوت عليها فصفحت.. وظلمتها فأذعنت. كنت أظن أنني الذي يجب أن يغفر ويصفح.. أما الآن فأرى أنني لست جديرا بعفوها وصفحها. أواه.. إني أنزل عن عشرة أعوام من حياتي، لأبكي ساعة تحت قدميها.

وشعرت بالشفقة والعطف على هذا الشاب الذي كشف لي آلامه وأحزانه بهذه الصراحة. فقلت له:

– أليس لك أقارب أو أصدقاء؟ اذهب لزيارتهم فقد يلطف حنانهم بعض ما بك.. أما أنا فلا أستطيع إلا الرثاء لك والاشفاق عليك.

فقال وهو ينهض واقفا. ويسير في الغرفة جيئة وذهابا:

– صدقت إنني أضايقك.. فمعذرة إذا كنت قد نسيت أن آلامي وأحزاني لا تهمك إلى قليلا.

– إنك تسيئ فهم كلامي.. فما أردت إلا التعبير عن أسفي لعجزي عن تلطيف حزنك.

ولكن إذا كانت صحبتي أو صحبة أصدقائي تخفف من آلامك.. أو كان في استطاعتي أن أقدم إليك أية خدمة من أي نوع.. فثق إنه يسرني أن أفعل من أجلك ما تريد.

فأجاب:

– إن الحزن يرهف الشعور. ويضاعف الحساسية.. فاسمح لي بالبقاء هنا بضع دقائق حتى تجف دموعي. لكيلا يقول الفضوليون في الطريق أنهم شاهدوا طفلا كبيرا يبكي، إنك أديت لي خدمة كبرى باعطائي هذا الكتاب.. ولست أعرف كيف أستطيع أن أعبر لك عن شكري وامتناني.

فأجبت:

– بل تستطيع ذلك، بأن تشرفني بصداقتك. وتحدثني بأسباب حزنك، فالإنسان يجد العزاء في سرد آلامه.

– هذا صحيح.. ولكني الآن متعب منهوك القوى وأخشى ألا تسمع مني كلاما مفهوما.. على أنك ستعرف قصتي في أحد الأيام.. وترى إن كان يحق لي أن أحزن على تلك الفتاة المسكينة.. أما الآن.. فأرجوك أن تقول لي إنني لم أثقل عليك.. وإنك تسمح لي بزيارتك مرة أخرى.

قال ذلك وفي عينيه نظرة رقيقة حببته إلي ثم تلبدت عيناه بسحب الدموع وأشاح بوجهه.

قلت له بصوت خافت:

– تشجع يا صديقي.. ورفه عنك.

فودعني ومشى إلى الباب.. وحركت ستار نافذتي.. ونظرت إلى الشارع.. فرأيته يقفز إلى مركبة كانت في انتظاره.. ثم دفن وجهه في منديله وانفجر باكيا.

الفصل الخامس

مرت فترة لم أسمع خلالها شيئا عن أرمان.. في حين سمعت الكثير عن مرغريت، فقد سبق أن رأيتها وقابلتها.. وطرق اسمها أذني مرارا منذ بيع أثاث بيتها فشعرت بفضول شديد إلى معرفة المزيد من أمر هذه المرأة التي خيل إلي أنها ليست كسائر النساء. وكانت النتيجة أنني قابلت واحدا من أصدقائي الذين لم أتحدث إليهم قط عن مرغريت. دار بيني وبينه الحديث التالي:

– هل كنت تعرف مرغريت جوتييه؟

– غادة الكاميليا؟!

– نعم هي من أعني.

– كنت أعرفها حق المعرفة.

وكانت عبارة "حق المعرفة" تقترن دائما بابتسامة لا يخفي مغزاها.

– حسنا.. ماذا تعرف عنها؟

– إنها كانت من بنات الهوى.

– هل هذا كل ما تعرفه؟!

– يا إلهي.. نعم.. وأعرف أنها كانت تختلف عن مثيلاتها بخفة روحها وشدة حساسيتها.

– ألا تعرف عنها شيئا خاصا؟

– نعم.. أعرف أنها كانت سببا في افلاس البارون دي ج...

– فقط؟

– وكانت عشيقة شيخ هرم هو الدوق دي بـ...

– هل كانت عشيقته حقا؟

– قيل ذلك.. ومهما يكن من أمر فإنه أعطاها مبالغ جسيمة

وهكذا.. لم أكن أسمع دائما غير الحقائق المطلقة.. والمعلومات الشائعة التي تلوكها الالسن عن المستهترات بصفة عامة. بيد أنني كنت أتوق إلى معرفة شئ محقق عن الصلة بين مرغريت وأرمان ديفال.. وذات يوم قابلت رجلا يعرف الكثير من أمور النساء ذوات المكانة البارزة في أوساط اللهو والعبث فسألته إن كان قد عرف مرغريت جوتييه فأجاب:

– حق المعرفة

سألته:

– من أي نوع من النساء كانت؟

أجاب:

– كانت حسناء، طيبة القلب. وقد أسفت لموتها أشد الأسف.

– هل كان لها عشيق يدعى أرمان ديفال؟

– هل هو شاب طويل أشقر؟

– نعم..

– إنه كان عشيقها حقا..

– وماذا تعرف عن هذا الشاب؟

– أظن أن هذا الشاب قد أنفق على مرغريت كل ثروته الضئيلة ثم اضطر أن يهجرها. ويقال أنه كان يحبها حب جنون

– وهي.. كانت تحبه؟!

– الظاهر أنها كانت تعطف عليه.. ولكنك تعرف معنى العطف عند هذا الطراز من النساء..

– وماذا صار إليه أمر أرمان؟!

– لا أعلم. فقد كانت معرفتي به محدودة. وأعتقد أنه قضى مع مرغريت خمسة أو ستة شهور في الضواحي.. ولكنهما افترقا عندما عادت مرغريت إلى باريس.

– ألم تره منذ ذلك العهد؟

– كلا..

وأنا بدوري لم أر هذا الشاب بعد ذلك.. فقلت لنفسي إنه جاء لزيارتي مباشرة بعد أن علم بنبأ موت مرغريت.. أفلا يمكن أن يكون هذا النبأ قد أحيا غرامه القديم. وأثار بالتالي حزنه وبأسه.. فلما مرت الفورة الأولى خمد غرامه وتلاشى حزمه وانمحت صورة مرغريت من قلبه فنسيها ونسي تبعا لذلك وعده بأن يأتي لزيارتي؟!

كان هذا الافتراض محتملا بصفة عامة. ولكني لم أستطع أن أنكر أنني لمست في حزنه شيئا كثيرا من الاخلاص والصدق حتى خطر لي أن يأسه وحزنه ربما انقلبا إلى مرض وأن انقطاع أخباره ربما كان دليلا على مرضه أو موته. وشعرت على الرغم مني بأن أمر هذا الفتى يهمني.. ولعله اهتمامي لا يخلو من الانانية والفضول إلى معرفة سر صمته واختفائه.. وأخيرا.. ولما لم يأت أرمان ديفال لزيارتي. قررت أن أذهب لزيارته.. ولم يكن من المتعذر التماس سبب لهذه الزيارة. ولكن من سوء الحظ أنني لم أكن أعرف عنوانه ولم أجد بين أصدقائي من يرشدني إلى مكانه.

ذهبت إلى بيت مرغريت في شارع (دانتان) فقد يعرف بواب البيت عنوان أرمان.. ولكني وجدت هناك بوابا جديدا لم يسمع قط باسم أرمان ديفال. واستفسرت عن المكان الذي يوجد فيه قبر مرغريت فعلمت أنها دفنت في مونمارتر وكنا وقتئذ في شهر أبريل والجو بديع.. وقد خلعت المقابر عنها وحشة الشتاء وصار الدفء يغري الاحياء بزيارة الأموات فقصدت إلى مدافن (مونمارتر).. وأنا مقتنع بأن نظرة واحدة إلى قبر

مرغريت تكفي للدلالة على مبلغ أسى أرمان، لأنني قد عرفت من حارس المقبرة ما صار إليه أمر هذا الأخير.

ودخلت غرفة الحارس وسألته عما إذا كانت فتاة تدعى مرغريت جوتييه قد دفنت في تلك المقبرة في يوم ٢٢ فبراير فبحث الحارس في دفتر كبير يتضمن أسماء أولئك الذين انتهى بهم المطاف إلى (مونمارتر) ثم أجابني بأن هناك حقا صبية بهذا الاسم قد ووريت التراب في مونمارتر في ذلك اليوم.

ورجوته أن يرشدني إلى قبرها لأن الإنسان لا يستطيع بغير دليل أن يعرف طريقه في مدينة الموتى. وأن تكن لها مسالك وشوارع كمدن الأحياء..ودعا الحارس بستاني المدفن وذكر له مكان القبر وأمره أن يذهب بي إليه...

قال البستاني وهو يرافقني:

– ليس أسهل من الاهتداء إلى هذا القبر.

– لماذا؟

– لأنه مزين بأزهار تختلف عن أزهار سائر لقبور.

– لعلك أنت الذي تعني بأزهاره..؟

– نعم يا سيدي.. وكم أود أن يعني الناس بموتاهم كما يعنى الشاب الذي عهد إلي بهذا القبر..

وبعد أن اجتاز بي بعض المسالك، وقف وقال:

– هو ذا القبر..

ورأيت أمامي وكرا من الزهور البيضاء لا يظنه الإنسان قبرا لولا الشاهد الرخامي الذي يحمل اسم صاحبة القبر. كانت جميع الزهور من نوع الكاميليا.

قال البستاني: ما قولك في هذا..؟

– هذا بديع حقا..

– وقد صدرت إلى الأوامر بأن أستبدل زهور الكاميليا بسواها كلما ذبلت..

– ومن ذا الذي أصدر إليك هذه الأوامر؟

– شاب بكى بكاء مرا عندما جاء إلى هنا لأول مرة.. ولعله كان من عشاق صاحبة القبر.. فقد قيل لي أنها كانت من بنات اللهو.. وكانت على جانب عظيم من الجمال.. هل كنت تعرفها يا سيدي..؟

– نعم..

– هل كانت لك بها مثل صلة ذلك الشاب؟

وتلاعبت على شفتيه ابتسامة ذات مغزى.

أجبت: كلا.. إنني لم أتحدث إليها قط.

ومع ذلك تزور قبرها؟ ذلك منك غاية الكرم ونبل الخلق فإن زائري هذه المخلوقة المسكينة لا يملأون المدفن.

– هل تعني أن أحدا لا يزور هذا القبر؟

– لا أحد غير ذلك الشاب الذي حدثتك عنه وقد زاره مرة واحدة..

– مرة واحدة فقط!

– مرة واحدة فقط..

– ألم يأت بعد ذلك؟!

– كلا.. ولكني واثق أنه سيأتي متى عاد.

– إذن فإنه قد سافر؟! هل تعلم إلى أين ذهب؟!

– أعتقد أنه ذهب لزيارة شقيقة الأنسة مرغريت جوتييه.

– ولماذا بحق السماء؟

– ليرجوها أن ترخص له في اخراج الجثة ونقلها من هذا القبر..

– ولماذا يريد أن يفعل ذلك؟!

– آه.. أنت تعلم يا سيدي أن للناس في الموتى عقائد عجيبة.. ونحن هنا نرى ذلك كل يوم.. وهذا القبر قد استؤجر لمدة خمسة أعوام

فقط. ولكن الشاب الذي حدثتك عنه يريد لصاحبته قبرا يخلد فيه جثمانها.. ويريد أن يكون القبر في مكان فسيح بالمدفن الجديد..

– أي مدفن جديد تعني..؟

– ذلك الذي يبني الآن لصق هذا المدفن.. أضف إلى ذلك أن لبعض الناس عقائد شاذة تحفز الشاب إلى نقل جثمان صاحبته من هذا المكان..

– ماذا تعني..؟!

– أعني أن بعض الناس لا يتركون صلفهم وكبرياءهم بباب المدفن، ولعلك تعلم أن هذه الآنسة مرغريت جوتييه كانت من أولئك الذين يعيشون عيشة سريعة، ويغترفون أكبر قدر من لذائذ الحياة في أقل فترة من الوقت.. والآن، قد ماتت هذه المسكينة.. ولم يبق منها غير ما يبقى من سواها ممن لا تنالهم الألسنة بالقيل والقال.. ولكن بعض الناس بل أكثر الناس يبرمون بوجود جسدها بمقربة من موتاهم.. ويقولون إن من عاش عيشتها يجب أن يدفن في مقبرة خاصة.. بعيدا عن مقابر الشرفاء، فهل سمعت في حياتك بمثل هذا؟! غير أنني ألقيت عليهم درسا لا ينسونه.. أولئك المنافقون الذين يسجلون على قبور موتاهم دموعا لم يذرفوها.. ويزعمون الحدب على موتاهم وهم لا يزورون قبورهم إلا مرة واحدة في كل عام.صدقني يا سيدي.. إنني لم أعرف هذه الفتاة.. ولا أعرف ماذا فعلت في حياتها.. ولكني مع ذلك أحبها، وأعطف عليها. وأعنى بقبرها. وأجلب

لها أبدع زهور الكاميليا بأقل ثمن.إن قبرها هو أحب القبور إلي.. ونحن خدام المدافن مرغمون على أن نحب الموتى، لأنهم يملأون فراغنا.. وليس لدينا متسع من الوقت لكي نحب شيئا آخر.

وأحسب أنني لست بحاجة إلى وصف الشعور الذي كان يعتمل في نفسي، وأنا أصغي إلى حديث هذا البستاني الأمين.. ولا شك أن الرجل لاحظ انفعالي لأنه مضى يقول:

– يقولون أن كثيرين من الشبان جلبوا على أنفسهم الخراب والدمار من أجل هذه الصبية. وأن بعض عشاقها كانوا يحبونها حب عبادة. ولكني لا أتمالك من الشعور بالأسى والاشفاق كلما فكرت في أن أحدا من هؤلاء العشاق الكثيرين لم يأت لزيارتها.. أو ليضع على قبرها زهرة واحدة.

ولكن لا... إنها ليست بحاجة إلى الشفقة والرثاء. بحسبها ذلك الشاب، فإن حزنه عليها يربي على حزن سائر عشاقها مجتمعين. وأجدر منها بالشفقة والرثاء فتيات على شاكلتها وفي مثل سنها يلقين هنا في المقبرة العامة مع المجهولين والمجرمين. ولا يفكر فيهن انسان بعد ذلك.إن مهمتنا ليست من المهام السارة يا سيدي. ولا سيما لرجل مثلي يعرف معنى الحنان.إن لي ابنة حسناء في العشرين من عمرها. وكلما جئ بفتاة ميتة في مثل سنها. انصرف ذهني إلى ابنتي. وحزنت على الميتة مهما تكن مكانتها في المجتمع.

وصمت الرجل لحظة ثم استطرد:

– ولكني أدخلت السأم على نفسك يا سيدي. فإنك لم تأت بغير شك لكي تصغي إلى حديث رجل مثلي.لقد طلب إلى أن أرشدك إلى قبر الآنسة مرغريت جوتييه.. ها هو القبر، فهل أستطيع أن أقدم إليك خدمة أخرى؟

فسألته:

– هل تعرف عنوان مسيون ارمان ديفال؟

– نعم يا سيدي.. إنني أعرف بيته.. أو على الأقل البيت الذي أذهب إليه للحصول على ثمن هذه الزهور التي تراها

وذكر لي العنوان، فشكرته. وألقيت نظرة أخيرة على ذلك القبر الصغير المغطى بالزهور البيضاء. وودت لو أستطيع أن أنفذ ببصري إلى أعماقه لأرى ماذا فعل القبر البارد بالمخلوقة الحسناء التي أودعت جوفه؟

سألني البستاني:

– هل يرغب سيدي في مقابلة مسيو ديفال؟

– نعم.

– أنا واثق أنه لم يعد ولو عاد لبادر إلى مقابلتي.

– أنت مقتنع إذن بأنه لم ينس مرغريت؟!

– إنني لست مقتنعا فحسب.. إني واثق كذلك من أنه لا يريد تغيير قبرها.. إلا لأنه يريد أن يراها للمرة الأخيرة

– وكيف ذلك؟

– لقد كانت أول عبارة قالها لي عندما دخل هذا المدفن أنه سألني "كيف أستطيع أن أراها مرة أخرى؟!" والانسان لا يستطيع أن يرى الميت بعد دفنه إلا إذا نقل من قبر إلى آخر.. وقد قلت له ذلك.. وأرشدته إلى ما يجب عمله.. ولما كان من الضروري التحقق من الجثة قبل نقلها.. وكان لأسرة الميت وحدها حق المطالبة بنقل جدثه. فقد قصد مسيو ديفال إلى شقيقة الآنسة مرغريت جوتييه لكي يحصل منها على الترخيص اللازم، ويرجوها أن تنيبه عنها في الاشراف على نقل الجثة ومتى تم له ذلك. فإن أول شئ يفعله بغير شك هو أن يأتي إلى هنا..

وبلغنا في هذه اللحظة باب المدفن، فكررت شكري للبستاني ونفحته قطعة من النقود وقصدت إلى العنوان الذي ذكره لي..

وهناك علمت أن أرمان لم يعد من رحلته.. فتركت له بطاقة رجوته فيها ألا يتخلف عن زيارتي عند عودته.. أو أن يذكر على الأقل أين أستطيع مقابلته..

وبعد يومين تسلمت رسالة ينبئني فيها بعودته.. ويدعوني لزيارته،لأنه مريض ولا يقوى على مغادرة بيته.

الفصل السادس

وجدت أرمان ملازما فراشه.. وشعرت بيده تكاد تلتهب..

قلت له:

– إنك محموم يا صديقي..

ـ ليس بي من شئ.. إلا التعب من تأثير رحلتي السريعة..

– هل قابلت أخت مرغريت؟

– نعم.. ولكن، من أنبأك بذلك؟

– نعم.. ولكني أسألك مرة أخرى: من ذا الذي أنبأك بأمر رحلتي والغرض منها؟

– بستاني المدفن..

– هل رأيت القبر؟

فلم أجسر على الإجابة..

كانت نبرات صوته تدل على أنه لا يزال فريسة الحزن الذي رأيت أعراضه عندما قابلته أول مرة.. فكل حديث في هذا الموضوع المحزن من شأنه أن يزيد أمله ووجده، لذلك قنعت بأن أحنيت رأسي علامة الايجاب..

سألني: هل عني البستاني بالقبر..؟

– كل العناية..

وهنا انحدرت على خده دمعتان كبيرتان.. فأشاح بوجهه ليخفيهما وتظاهرت من ناحيتي، بأنني لم أر دموعه، وحاولت أن أغير مجرى الحديث.. قلت:

– لقد انقضت ثلاثة أسابيع منذ رحيلك..

فأجاب: نعم ثلاثة أسابيع كاملة..

– هل كانت الرحلة طويلة؟

– إنني لم أقض الوقت كله في السفر، فقد أقعدني المرض أسبوعين ولولا ذلك لعدت منذ وقت طويل.. ولكني في الواقع ما كدت أصل إلى نهاية الرحلة حتى انتابتني الحمى فلزمت الفراش..

– وقفلت راجعا قبل أن تشفى من مرضك؟

– لو أنني مكثت أسبوعا آخر في ذلك الاقليم لهلكت بلا محالة..

– أما وقد عدت الآن فيجب أن تعنى بنفسك كل العناية.

– إنني سأبرح الفراش بعد ساعتين..

– تلك هي الحماقة بعينها..

– لابد أن أفعل ذلك..

– وماذا يرغمك؟

– يجب أن أقابل قومسير البوليس، للاتفاق على موعد نقل الجثة..

– ولماذا لا تنفذ شخصا آخر في هذه المهمة التي قد تضاعف مرضك...؟

– هذه المهمة هي الدواء الوحيد لسقمي.. إنني أريد أن أراها ويجب أن أراها..منذ انتهى إلي نبأ موتها، أو على الأصح منذ رأيت قبرها.. وأنا لا يغمض لي جفن، ولا أستطيع أن أصدق أن هذه الصبية التي تركتها ممتلئة جمالا وفتوة قد ماتت، يجب أن أراها لأتحقق بنفسي.. ويجب أن أرى كيف أصبحت هذه المخلوقة التي أحبتها بكل كياني.. فلعل هول منظرها يخفف من آلام الذكرى..إنك سترافقني.. أليس كذلك؟.. أعني إذا لم يكن في ذلك ما يسئمك..

– وماذا قالت أختها؟

– لا شئ.. فقط أدهشها كثيرا أن يهتم أجنبي مثلي بشراء قطعة أرض وبناء قبر لمرغريت، ولكنها أمدتني بالترخيص الذي طلبته بغير تردد.

– اصغ إلي.. إنني أنصح لك بتأجيل نقل الجثة إلى أن تبرأ من سقمك.. وتسترد صحتك..

– صدقني.. إنني سأجد في استطاعتي انفاذ هذه المهمة إلى النهاية، بل إنني قد أجن إذا لم أفرغ منها بأسرع ما يمكن.. وقد قلت لك إنني لن

أهدأ بالا، وأطمئن نفسا، حتى أرى مرغريت.. وربما كانت هذه الرغبة وليدة الحمى التي تمشي في عروقي، أو ضربا من الجنون والهذيان، ولكني مصمم على تحقيقها مهما كانت الظروف..

فقلت:

– إنني أفهم شعورك.. وسأضع نفسي في خدمتك.. هل قابلت جوليا ديبار؟

نعم.. قابلتها عقب عودتي..

– وهل أعطتك يوميات مرغريت؟

– نعم.. وها هي..

وأخرج من تحت وسادته حزمة من الأوراق. ثم ردها إلى مكانها في الحال. وهو يقول:

– لقد حفظت محتويات هذه الأوراق عن ظهر قلب، لأنني قرأتها عشر مرات في كل يوم من أيام الأسابيع الثلاثة الأخيرة. وستقرأها أنت كذلك.. ولكن فيما بعد.. عندما استرد هدوئي وسكينتي.. ويصبح في مقدوري أن أوضح لك ما تضمنته من حب وألم. أما الآن.. فإنني أسألك أن تسدي إلي معروفا.

– افصح فما تريد.

– هل مركبتك في انتظارك بالباب؟

– نعم..

– هل لك إذن في أن تأخذ جواز سفري وتنطلق به إلى مكتب البريد لتأتيني بما قد يكون لي فيه من رسائل؟ لقد كنت أنتظر رسائل من أبي وأختي.. ولكني رحلت عن باريس فجأة قبل أن أستفسر عن هذه الرسائل.ومتى عدت من مهمتك ذهبنا سويا إلى ضابط البوليس لنتفق معه على موعد نقل الجثة غدا.

قال ذلك وقدم لي جواز سفره فانطلقت به إلى مكتب البريد في شارع جان جاك روسو.. وهناك وجدت رسالتين باسمه فحملتهما إليه.ولما عدت وجدته قد ارتدى ثيابه وتأهب للخروج.

قال وهو يتناول الرسالتين:

– إنني عاجز عن شكرك.

ونظر إلى الرسالتين وأردف:

– نعم.. إنها من أبي وأختي.. ولابد أن يكون صمتي قد أدهشهما.

وفض الرسالتين.. وألقى عليهما نظرة سريعة.. ألم فيها بالقليل من مضمونهما. ثم طواهما وقال:

– هلم بنا نذهب. سأرد على هاتين الرسالتين غدا.

وقصدنا إلى مكتب البوليس.. ووضع أرمان بين يدي الضابط التفويض الذي حصل عليه من شقيقة مرغريت، وأعطاه الضابط بدوره

رسالة إلى حارس المقبرة، وتم الاتفاق على أن يكون نقل الجثة في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. وطلب إلي أرمان أقابله قبل هذا الموعد بساعة، لكي أرافقه إلى المدفن.

واعترف بأنني قضيت تلك الليلة نهبة الفضول والقلق. وفروغ الصبر فلم أنم إلا قليلا. وقياسا على ما أصابني من الأرق والانفعال.. لابد أن تكون تلك الليلة من أطول الليالي التي مرت بارمان.

ولما ذهبت إلى ارمان في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي.. وجدته شاحب اللون شحوبا مخيفا.. ولكنه كان بادي الهدوء والسكينة فابتسم لي وشد على يدي بحرارة.وحانت مني التفاتة.. فرأيت أثر الشموع المحترقة.. وأدركت أن الفتى لم يغمض له جفن طول الليل.

وقبل أن ننصرف.. أرسل ارمان خادمه إلى صندوق البريد برسالة ضخمة إلى أبيه.. ضمنها ولا شك خواطره وتأملاته والانفعالات التي عصفت بكيانه في تلك الليلة المسهدة الطويلة

وبعد نصف ساعة.. كنا في (مونمارتر).

وقد وجدنا ضابط البوليس في انتظارنا.. فمشينا ببطء إلى قبر مرغريت.. والضابط في المقدمة ونحن في أثره.

وكنت أتأبط ساعد ارمان.. فشعرت به يرتجف بشدة من وقت لآخر ولما نظرت إليه في قلق.. فهم مغزى نظراتي وابتسم لي مطمئنا، ولكنه لم

ينطق بكلمة ثم غادرنا البيت.وقبل أن نصل إلى القبر. تمهل ارمان قليلا.. ومر بمنديله على وجهه وعندئذ فقط رأيت العرق يتصبب على جبينه غزيرا.

وانتهزت هذه الفرصة وتنفست ملء رئتي.. فقد خيل إلي بدوري كأن أصابعا من فولاذ تضغط قلبي.وإني لأعجب.. عن أية عاطفة يصدر الفضول الذي يشعر به الإنسان إلى رؤية أمثال هذه المشاهد.

وعندما وصلنا إلى القبر.. كان البستاني قد رفع أواني الزهور.. وأزال حاجز القضبان الحديدية التي تحيط بالقبر وشرع اثنان من الرجال في حفر الأرض. واستند ارمان إلى إحدى الأشجار.. وراح ينظر أمامه.. وخيل إلى أن روحه تطل من عينيه.

وفجأة.. ارتطم معول أحد الرجلين بحجر.. وسمع ارمان صوت الارتطام فانتفض كأنه مس سلكا مشحونا بالكهرباء.. وضغط على ساعدي بقوة آلمتني. وأخذ الرجلان في إزالة الأحجار التي تغطي التابوت.

وهنا لم أحول بصري عن ارمان.. فقد خفت في هذه اللحظة أن يغلبه الانفعال الذي ظل يغالبه حتى ذلك الوقت. ولكنه ظل ينظر نحو القبر بعينين واسعتين ثابتتين لا تتحركان في محجريهما كأنهما عينا مجنون ولم أر من دلائل انفعاله وآلامه غير رجفة بسيطة هزت شفتيه الرقيقتين.

أما أنا.. فلا أقول عن نفسي إلا كلمة واحدة. وهي أنني وددت في تلك اللحظة.. لو أنني لم أحضر.

وما إن أزيلت الاحجار عن التابوت.. حتى قال الضابط لأحد الرجلين:

– افتح التابوت.

كان التابوت مصنوعا من خشب السنديان.. فشرع الرجلين في رفع غطائه.. وكان الصدأ قد علا المسامير من فعل الرطوبة.. فوجد الرجلان عناء شديدا في انتزاعها.ورفع الغطاء وانبعث من التابوت رائحة مقيتة رغم الاعشاب العطرية التي أحيطت بها الجثة.

وغمغم ارمان وقد اشتد شحوبه:

– يا الهي.. يا الهي.

وانكمش الحاضرون جميعا.. فقد كان الكفن الأبيض الرقيق يكشف أكثر تقاطيع الجثة. وقد تطرق العطب والتلف إلى أحد أطراف هذا الكفن فأطلت منه قدما الميتة.

خارت قواي أمام هذا المنظر ومازلت حتى الساعة أرتجف فزعا وذعرا كلما تذكرت تفاصيله المخيفة.

صاح الضابط بالرجلين:

– أسرعا.

فمد أحد الرجلين يده.. ورفع طرف الكفن.. وكشف فجأة عن وجه الميتة.كان منظرا يهول الإنسان أن يراه.. ويهوله أن يصفه. لم يبق من

العينين غير ثقبين فارغين.. واختفت الشفتان وبرزت الأسنان البيضاء بروزا مخيفا.. وانسدلت خصل الشعر على عظام الفكين فأخفت بعضها.. على الرغم من كل ذلك.. فإنني تبينت في تلك العظام النخرة أثر تكوين ذلك الوجه الوردي الجميل الذي طالما أعجبت به.

ورفع ارمان منديله إلى فمه.. وراح يقضمه.. دون أن يقوى على تحويل عينيه عن ذلك المنظر المخيف.

أما أنا فقد خيل إلي كأن قطعة من فولاذ تضغط جبهتي.. وأن سحابة كثيفة تظلل عيني.. ودويا مرتفعا يكاد يصم أذني.. وكل ما استطعته في تلك الحالة أنني وضعت على أنفي قنينة صغيرة تحتوي على مادة منعشة كنت جئت بها معي.

وفي أثناء هذه الغيبوبة السريعة التي مرت بي، سمعت ضابط البوليس يسأل ارمان:

– هل تحققت من أن هذه هي الجثة التي يراد نقلها؟

فأجاب الشاب بصوت لا يكاد يسمع:

– نعم.

فقال الضابط للرجلين:

– إذن فأغلقا التابوت.. وانقلاه من هذه الحفرة. وحملاه إلى المكان الجديد الذي سيدفن فيه.

فأسدل الرجلان الكفن على وجه الميتة، وأغلقا التابوت.. وحملاه إلى المكان الجديد الذي سيدفن فيه.

ولم يتحرك ارمان من مكانه.. ولم تتحول عيناه عن القبر الفارغ.كان أشد امتقاعا من الجثة التي رآها في التو واللحظة.. وكان الرعب قد شل حركته.. وأمسك أنفاسه.

وتوقعت ما سوف يحدث متي بلغ انفعاله مداه فاقتربت من الضابط وسألته:

– هل لا يزال وجود هذا الشاب ضروريا؟

فأجاب:

– كلا.. بل وإني أنصح لك أن تذهب به، فإن حالته ليست على ما يرام.

فقلت وأنا أتأبط ساعد ارمان:

– هلم بنا...

فهتف وهو يحملق في وجهي ولا يعرفني:

– ماذا؟

قلت:

لقد انتهى كل شئ. ويجب أن تعود إلى منزلك يا صديقي فإنك ممتقع الوجه. مثلج الأطراف.. وستقتل نفسك إذا استمرت هذه الانفعالات العنيفة..

فأجاب بلهجة آلية:

– صدقت... فهلم بنا..

ولكنه لم يتزحزح من مكانه فأمسكت بساعده واجتذبته معي.وسمح لي أن أقتاده كما يقاد الطفل. وهو يغمغم بين الفينة والفينة كمن يتحدث إلى نفسه:

– هل رأيت تلكما العينين؟

ثم أشاح بوجهه.. كأنما ليطرد عن ناظريه ذلك المشهد المخيف.وأبطأ في مشيته بالتدريج.. واصطكت أسنانه.. وعرته هزة عصبية زلزلت كل جسده.

تحدثت إليه. ولكنه لك يجب. وكل ما هنا لك أنه سمح لي أن اقتاده.وكانت المركبة تنتظرنا بباب المدفن. وقد وصلنا إليها في الوقت المناسب، لأنني ما كدت أجلسه فيها.. حتى اشتد ارتجافه. ولعله أشفق علي من الانزعاج. فغمغم وهو يضغط على يدي:

– ليس بي من شئ.. ليس بي من شئ.. فقط أود لو أستطيع البكاء.

ورأيت صدره يعلو وهبط بعنف.. واحمرت عيناه. ولكن دموعه رفضت أن تسيل.

ووصلنا أخيرا إلى بيته وهو لا يزال يرتجف بعنف. فاستعنت بخادمه على نقله إلى فراشه. وأمرت الخادم أن يشعل النار في الموقد ثم انطلقت في البحث عن طبيب.. وسردت على الطبيب أثناء الطريق ما حدث.ولما عدت إلى ارمان. وجدته محتنق الوجه. وهو يهذي بكلام غير مفهوم تبينت فيه مرارا اسم مرغريت.

سألت الطبيب بعد أن فرغ من فحصه:

– ماذا وجدت؟

فأجاب:

– لقد أصيب بحمة مخيفة.. وهذا من حسن حظه.. ولولا ذلك لفقد عقله. أما الآن. فالمرض الجسماني سوف يستأصل المرض العقلي ولا ينقضي شهر حتى يبرأ من الداءين.

الفصل السابع

لم يمر أسبوعان حتى كان ارمان قد دخل في دور النقاهة.. وحتى كانت أواصر الصداقة قد توثقت بيني وبينه، لأنني لم أغادر غرفته طيلة مرضه. وكان الربيع قد بدأ. وغرفة صديقي تطل على حديقة غناء ملأى بالزهور. فتملأ الجو بشذاها المنعش.

وقد سمح الطبيب لارمان بالجلوس فأخذنا نقضي أكثر أوقات الدفء في تجاذب أطراف الحديث بالقرب من النافذة. وعنيت بألا أذكر في حديثي اسم مرغريت. حتى لا يثير هذا الاسم في صدر ارمان عاصفة من الحزن والألم يخشى عليه معها من الانتكاس.. بيد أنه راح يتكلم عنها من تلقاء نفسه. وخيل إلي أنه يجد في ذلك لذة وارتياحا.أصبح ينطق باسمها مقرونا بآهة رقيقة.. بعد أن كان فيما مضى يرويه بدموعه.. مما طمأنني إلى استقرار قواه العقلية. ولاحظت بعد زيارة المدفن.. وبعد المنظر الذي أحدث في نفسه تلك الأزمة العاطفية العنيفة.. إن مرضه الجثماني قد خفف من آلامه النفسانية وأنه شعر بنوع من العزاء والسلوى بعد أن (تحقق) من موت مرغريت.. وأنه يحاول دائما أن يطرد ذكرياته الحديثة المخيفة باحياء ذكرى الماضي البعيد. وقد رفض بإصرار أن ينبئ أسرته بالخطر الذي يهدد حياته حتى أنه شفي من مرضه قبل أن يعلم أبوه بأنه كان مريضا.

وذات يوم طالت إقامتنا بقرب النافذة أكثر من المعتاد.وكان الجو بديعا والشمس تنحدر نحو الأفق وسط شفق أزرق موشي بالذهب ونحن بفضل أشجار الحديقة كأننا في واد بعيد عن باريس وضجتها وصخبها.. فقال ارمان وهو منصرف إلى أفكاره وتأملاته:

– في مثل هذا الوقت من السنة وفي مساء كهذا المساء عرفت مرغريت لأول مرة.

فلم أجبه..

ولزم هو الصمت لحظة ثم تحول إلي وقال:

– يجب أن أسرد عليك ما كان بيني وبين مرغريت.. فربما استطعت أن تسجله في قصة قد لا يصدقها أحد.. ولكنك ستجد لذة في كتابتها.

فأجبته:

– حدثني بهذه القصة فيما بعد يا صديقي.. أما الآن فإن ضعفك لا يساعدك على بذل هذا الجهد.

فقال وهو يبتسم:

– إن الجو دافئ.. وقد أكلت جناح دجاجة ولست محموما.. وليس لدينا ما نصنعه.. فسأسرد عليك القصة.

فأجبت:

– ما دمت مصرا فعلى رسلك.. وها أنذا مصغ إليك.

قال:

– إنها قصة بسيطة.. ولكن يجب أن أسردها عليك بترتيب حوادثها، ولك أن تصوغها في القالب الذي تشاء.

وفيما يلي قصته المؤثرة كما سردها علي.. دون أن أغير منها كلمة واحدة.

قال ارمان وهو يضطجع في مقعده:

– نعم إنني عرفتها في مثل هذا المساء.كنت قد قضيت النهار في الضواحي مع صديق لي يدعى جاستون. وفي المساء عدنا معا إلى باريس.. ولم ندر ماذا نصنع فقصدت إلى مسرح (الفارياتيه) وبين الفصول.. خرجنا إلى أروقة المسرح.. ومرت بنا سيدة طويلة القامة حياها صديقي باحناء قامته.. فسألته:

– لمن أحنيت قامتك في التو واللحظة!

فأجاب:

– لمرغريت جوتييه.

فأجبت بانفعال سأذكر سببه فيما يلي:

– يخيل إلي أنها تغيرت كثيرا، لأنني لم أعرفها.

– إنها كانت مريضة.. مسكينة هذه الفتاة.. إنها لن تعمر طويلا.

وقبل ذلك بعامين كنت إذا قابلت هذه الفتاة اضطربت دون أن أعرف السبب. وقد برر هذه الظاهرة أحد أصدقائي الذين يزعمون معرفة العلوم الروحانية فقال أنها ضرب من الجاذبية المغنطيسية.. أما أنا فأعتقد بأنه كان مقدرا لي منذ البداية أن أقع في غرام مرغريت.. وأن هذه الظاهرة لم تكن إلا النذير. ولا شك أن تأثيرها علي كان شديدا وواضحا بحيث لاحظه بعض أصدقائي.. فكان مصدرا لضحكاتهم وسخريتهم. وقد رأيت مرغريت لأول مرة في ميدان (البورصة).. إذ وقفت إحدى المركبات الفخمة بباب محل للأزياء هناك. وهبطت منها غانية ترتدي ثوبا أبيض.. ودخلت المحل تشيعها عبارات الاعجاب من أفواه المارة الذين وقعت أبصارهم عليها. كنت بين الذين أبصروا بها.. فبهرني جمالها.. وجمدت في مكاني ولم أتزحزح خطوة واحدة حتى رأيتها تخرج من المحل وتعود إلى مركبتها.

كانت ترتدي ثوبا أنيقا كثير التلافيف.. وتلقي على منكبيها منديلا من الحرير الهندي موشى بالفضة والذهب. وتضع على رأسها قبعة عريضة من القش الإيطالي.. وتزين معصمها بأسورة واحدة صيغت في شكل سلسلة ضخمة من الذهب الخالص.. كانت هي (المودة) الشائعة في ذلك الوقت. وانطلقت المركبة.. فشيعتها ببصري حتى ابتعدت.. ثم حانت مني التفاتة فرأيت أحد عمال المتجر واقفا ببابه.

دنوت منه وسألته عن اسم عميلته الحسناء. فأجاب:

– إنها الآنسة مرغريت جوتييه.

وأردت أن أسأله عن عنوانها.. ثم ترددت وخجلت... وانصرفت.

ولم يتلاش هذا الحلم (الجميل) من مخيلتي كما تلاشى سائر الأحلام المماثلة فذهبت أبحث في كل مكان عن هذه (السيدة البيضاء) ذات الجمال الملائكي، إلى أن ذهبت إلى مسرح (الأوبرا كوميك) في أحد الأيام، فكان أول شخص استقر عليه بصري في إحدى المقصورات هو مرغريت جوتييه.وكان برفقتي صديق لي يدعى (أرنست)... فرآها بدوره وعرفها وقال وهو يومئ نحوها:

– انظر إلى هذه الحسناء.. إنها مرغريت جوتييه.

وفي هذه اللحظة حولت مرغريت منظارها نحونا ورأت صديقي وابتسمت له. وأشارت إليه تدعوه إلى مقصورتها.

قال:

– سأذهب لتحيتها.. وأعود في الحال.

فلم أتمالك أن قلت له:

– إنك سعيد الحظ.

– لماذا؟

– لأنك تعرفها.

– هل تحبها؟

– كلا.. طبعا.

ولكني شعرت بالدم يصعد إلى وجهي. كنت أود لو يقدمني إليها.. ولكني لم أصارحه بهذه الرغبة

قال:

– تعال معي فأقدمك إليها.

– يجب أن تستأذنها أولا.

– كلا.. كلا.. لا ضرورة لهذه التقاليد مع فتاة من هذا الطراز. هلم بنا.

آلمتني هذه العبارة. واللهجة التي قيلت بها.

نعم.. تألمت على الرغم مني. فقد كان يشق علي أن أسمع ما يؤكد لي أن مرغريت ليست جديرة بالشعور الذي أيقظته في أعماق نفسي.

* * *

في قصة من وضع (الفونس كار) أن البطل – وهو شاب في مقتبل العمل – تعقب ذات مساء فتاة حسناء وقع في غرامها من أول نظرة. وخيل إلى الفتى وهو يتبع صاحبته أنه على استعداد لأن يضحي بكل شئ.

لقاء قبلة يطبعها على يد الفتاة. وبلغ من رقة شعوره أن أحس بأن مجرد اختلاس النظرات إلى عقبى الفتاة وهي تسير أمامه وترفع طرف ثوبها اتقاء الأوحال هو فسق وانتهاك لطهارة الفتاة.وإنه يفكر في المستحيلات التي يعتزم الإقدام عليها للحصول على الفتاة. إذا بالفتاة تقف فجأة في أحد أركان الشارع.. وما إن دنا منها، حتى ابتسمت له. ودعته إلى غرفتها.وعندئذ دار الفتى على عقبيه. واجتاز الشارع. وعاد إلى بيته حزينا كاسف البال.

وتذكرت هذه القصة. وخفت أن تنتهي تجربتي كما انتهت تجربة ذلك الشاب، فتخف مرغريت إلى الترحيب بي وتعطيني من نفسها في غير تمنع ما كنت على استعداد لكل تضحية في سبيله، وذلك هو شأننا دائما نحن الرجال. وإنه لمن حسن الحظ أن ترقى خيالاتنا بمشاعرنا بهذه الصفة فتضعها فوق مستوى شهواتنا البهيمية. وفي الحق لو قال لي قائل: "ستنال هذه المرأة الليلة وستقتل غدا" لما ترددت في القبول ولو قيل لي "ادفع مائة من الفرنكات فتصبح عشيق هذه المرأة" لرفضت.. وحزنت.. كما يحزن الطفل إذ ينهار قصره الذي شيده في الرمال.

ومهما يكن الأمر فقد أردت أن أجتمع بمرغريت. وأن أتحدث إليها فتلك هي الوسيلة الوحيدة لاختبارها. وتكوين الرأي الصحيح عنها ولكني ألححت على صاحبي في أن يستأذنها أولا قبل أن أرافقه إلى مقصورتها.

وأخذت أسير في ردهة المسرح جيئة وذهابا وأعد الكلام الذي سوف أوقله في حضرتها.فانظر إلى أي حد من سذاجة الطفولة يرتد العاشق؟

وعاد صديقي بعد لحظة وهو يقول:

– إنها تنتظرنا.

فسألته:

– وهل هي وحدها؟

– إن معها سيدة أخرى؟

– أليس هناك رجال؟

– كلا.

– هلم بنا إذن.

وسار بي صديقي إلى باب المسرح. فهتفت به:

– إلى أين أنت ذاهب؟ إنك ضللت الطريق.

فأجاب:

– كلا.. إنني سأبتاع لها بعض الحلوى. فقد طلبت إلي ذلك.

وقصدنا إلى حانوت للحلوى في ميدان الأوبرا... وكنت على استعداد لشراء محتويات الحانوت كله.. ولكن صديقي اقتصر على شراء رطل من الأعناب المجففة.. فسألته:

– هل أنت واثق من أنها تحب هذا النوع؟

– من المشهور عنها أنها لا تمس نوعا آخر من الحلوى.

ثم استطرد ونحن في طريقنا إلى المسرح:

– هل تعلم إلى أية فتاة سأقدمك الليلة؟ لا تتوهم أنني سأقدمك إلى إحدى المركيزات أو الدوقات.. فما مرغريت إلا فتاة عابثة تعيش في أكناف عشاقها.. وما أكثرهم، فلا تحار بين يديها.. ولا تضطرب أو تتلعثم في حضرتها.. بل قل كل ما يتبادر إلى ذهنك.

فأطرقت برأسي موافقا.. وتبعته.. وأنا أقول لنفسي إنني أوشك أن أبرأ من غرامي.

ولما دخلنا المقصورة.. كانت مرغريت تغرق في الضحك. وكان أحب إلي أن أراها واجمة حزينة. وقدمني صديقي إليها.. فحيتني باحناءة بسيطة من رأسها وسألت:

– وأين الحلوى؟

– ها هي.

وتناولت الحلوى. ونظرت إلي.. فغضضت بصري على الرغم مني. وصعد الدم إلى وجهي.وانحنت مرغريت على زميلتها. وهمست في أذنها بضع كلمات وانفجرتا ضاحكتين. ولا شك أنني كنت موضوع هذا الضحك. فتضاعفت حيرتي. وزاد اضطرابي.

وكانت لي في ذلك الوقت عشيقة.. هي فتاة في مقتبل العمر تشتغل في أحد المتاجر.. وتمتاز برقة شعورها.. وشدة حساسيتها.. وطالما أضحكتني مشاعرها ورسائلها.. فأدركت – قياسا على شعوري – كم كانت هذه الفتاة تتألم من ضحكاتي وسخريتي.. ومرت بي بضع دقائق شعرت في خلالها بأنني أحب هذه الفتاة المسكينة كما لن يحب الرجل امرأة..

وراحت مرغريت تأكل حلواها.. دون أن تعيرني التفاتا. ولم يشأ صديقي أن يتركني في ذلك الموقف المخجل فقال:

– لا يدهشك يا مرغريت أن يقف صديقي بين يديك صامتا واجما. فإنك ملكت عليه مشاعره فأصبح لا يقوى على الكلام.

فأجابت:

– بل أكبر الظن أنه جاء برفقتك لأنك خفت أن يسئمك الحضور بمفردك.

فقلت:

– لو صح ذلك ما رجوت صديقي "أرنست" أن يستأذنك في إحضاري.

فأجابت:

– لعل ذلك لم يكن إلا وسيلة لارجاء سأمه وملالته بعض الوقت.

وكل إنسان يعرف القليل من أخلاق هذه الطبقة من النساء يعلم أنهن يشعرن بلذة خاصة في الهزؤ بالفتيان الذين يقابلونهن للمرة الأولى. ولا

شك أن ذلك نوع من الانتقام لما يلقين من مذلة واحتقار على أيدي الرجال الذين يعرفونهن حق المعرفة، ولذلك يتعين على الإنسان لكي يوفق في اجاباته وأحاديثه معهن أن يعرف من أمورهن أكثر مما كنت أعرف في ذلك الوقت.

يضاف إلى ذلك أنني كنت أحل مرغريت في مخيلتي محلا رفيعا مما ضاعف وقع سخريتها في نفسي.. فنهضت واقفا.. وقلت بصوت ينم عن الامتعاض:

– إذا كان ذلك هو رأيك في يا سيدتي.. فإنه لا يبقى لي إلا أن أعتذر عن تطفلي وانصرف في الحال..

وأحنيت قامتي، وانصرفت..وما كدت أغلق باب المقصورة حتى دوت في أذني قهقهة مرتفعة.وقصدت إلى مقعدي.. واستؤنف التمثيل.. فعاد "أرنست" إلى مكانه بجانبي، وقال وهو يجلس:

– ما أعجب سلوكك!! لقد ظنت المرأتان أن بك مسا من الجنون.

– وماذا قالت مرغريت بعد انصرافي؟

– إنها ضحكت. وقالت أنها لم تر في حياتها إنسانا أعجب منك.. والواقع.. إنك تولي أولئك النسوة شرفا لسن أهلا له إذا نظرت بعين الجد والأهمية إلى كل أقوالهن.. إنهن لا يعرفن معنى اللياقة والمجاملة بل إنهن أشبه

بالكلاب التي تضمخ بالعطور فتزعجها الرائحة الزكية. وتتمرغ في التراب لتتخلص منها.

فقلت متظاهرا بقلة الاكتراث:

– لقد كان ما كان وانتهى الأمر ولن أراها بعد الآن. كنت أعجب بها قبل أن أعرفها.. فلما عرفتها استحال الاعجاب احتقارا.

– ومع ذلك فلن يدهشني أن أراك في مقصورتها في أحد الأيام. وأن يبلغني أنك تورد نفسك موارد الخراب والدمار من أجلها.

– إنها سيئة الطباع حقا.. ولكنها مع ذلك امرأة يتمنى كل رجل أن يتخذها لنفسه خليلة.

ومن حسن الحظ أن الستار رفع في تلك اللحظة وبدأ التمثيل فصمت "أرنست".

ويستحيل علي أن أذكر شيئا عن المسرحية التي كانت تمثل ولكني أذكر فقط أنني لم أكف عن التطلع بين الفينة والفينة إلى مقصورة مرغريت. وإن الزائرين الذين رأيتهم يتعاقبون على هذه المقصورة كانوا يفوقون العد والحصر.

كنت أبعد من أن أقصي مرغريت من ذهني. ولكن شعوري نحوها تبدل. وأصبح كل همي أن أنتقم لما نالني على يديها من هزء وسخرية. وإن كلفني ذلك كل ما أملك. وأن يكون الانتقام بقهرها.. والسيطرة عليها

واذلالها. وقبيل انتهاء التمثيل.. غادرت مرغريت وصاحبتها مقصورتهما. فنهضت واقفا. وتأهبت للحاق بهما.

ودهش أرنست وسألني:

– هل أنت ذاهب؟

– نعم...

– لماذا...

ولاحظ في هذه اللحظة خلو مقصورة مرغريت فهتف:

– اذهب.. اذهب بحق السماء.. إنني أتمنى لك كل توفيق.

فخرجت. وسمعت على السلم جلبة وحفيف أثواب فانتحيت ناحية. ورأيت المرأتين تنصرفان بصحبة رجلين.. فتبعتهم عن كثب وسمعت مرغريت تقول لأحد غلمان المسرح:

– اذهب وقل للحوذي أن ينتظرنا بباب المطعم الانجليزي فإننا سنذهب إلى هناك سيرا على الأقدام.

وبعد بضع دقائق كنت أسير أمام هذا المطعم جيئة وذهابا.. فرأيت مرغريت واقفة في مقصورة إحدى الغرف الخاصة.. وهي تهشم بأصابعها إحدى زهور الكاميليا. ورأيت أحد الرجلين مستندا إلى كتفها.. وهو يهمس في أذنها كلاما.فقصدت إلى مقهى أمام المطعم وجلست هناك. أرقب تلك المقصورة ولا أحول بصري عنها.

إلى أن كانت الساعة الواحدة صباحا. فخرجت مرغريت من المطعم وصعدت إلى مركبتها وتبعها رفاقها الثلاثة. فاستأجرت إحدى المركبات وانطلقت بها في أثرهم.ووقفت المركبة أخيرا أمام المنزل رقم ٩ بشارع دانتان. وهبطت منها مرغريت.. ودخلت المنزل بمفردها.ومن عجب أنني شعرت بارتياح عظيم عندما رأيتها تدخل المنزل بمفردها.

وقد قابلتها مرارا بعد ذلك في المسارح وحدائق الشانزلزيه.. وفي كل مرة كنت أشعر بوجودها قبل أن أراها.. وفي كل مرة كنت أضطرب ظهرا لبطن.ثم مر أسبوعان ولم أرها ثم قابلت صديقي جاستون وسألته عن نبئها فأجاب:

– إن الفتاة المسكينة في أشد حالات المرض.

– وماذا بها؟

– إنها مريضة بداء الرئة ولما كانت طبيعة حياتها لا تساعد على شفائها فقد اشتد بها المرض حتى ألزمها الفراش. ويقال أن موتها أصبح مؤكدا.

يا إلهي ما أعجب القلب.. لقد كنت أحب هذه الفتاة.. ومع ذلك لم أكره لها أن تموت. وبالرغم من كل ذلك.. فإنني ذهبت أتردد على بيتها كل يوم دون أن أذكر اسمي للاستفسار عن صحتها.. إلى أن علمت برحيلها إلى (بانير).ومرت الأيام والشهور.. وشغلتني الاسفار ومهام الحياة عن التفكير فيها.. وبدأت أنظر إلى ما كان بيني وبينها على أنه ضرب من

نزق الشباب.. إلى أن صادفتها وأنا أسير مع صديقي جاستون في أروقة مسرح الفارياتيه .. فاكتشفت لحظتها أن غيابها عن عيني عامين كاملين لم يكن كافيا لمنع قلبي من القفز بين جنبي حينما رأيتها.

الفصل الثامن

أحسست إذن بأنني ما زلت أحبها.. واقترن هذا الإحساس برغبة جامحة في الاتصال بها.. وذهبت أخدع نفسي فأبرر هذه الرغبة بأنها لمجرد الانتقام.. وإظهار هذه الغانية على أنني أصبحت رجلا لا يرقى إليه هزؤها واغراؤها. فيا لله ما أغرب أساليب القلب. وما أعجب الاعذار التي يتلمسها للوصول إلى رغباته؟!

بعد أن مرت بي مرغريت وتوارت في أبهاء المسرح.. قصدت توا إلى مقعدي بالصالة وأرسلت بصري نحو الشرفات لأرى في أية مقصورة تجلس. وقد رأيتها...

كانت قد تغيرت كثيرا حقا فلم أعد أرى على شفتيها ابتسامتها العادية التي تجمع بين السخرية وقلة الاكتراث. كان من الواضح أنها قاست كثيرا.. بل ولا تزال تقاسي!

وعلى الرغم من أننا كنا في شهر أبريل.. فإنها كانت لا تزال ترتدي ثياب الشتاء. وتضم جسمها الصغير في معطف من القطيفة. أخذت أحملق فيها . فاسترعيت انتباهها.. رمقتني بنظرة فاحصة.. وظننت أنها عرفتني، لأنها عندما رفعت المنظار عن عينيها.. كانت تتلاعب على شفتيها ابتسامة رقيقة.. ولكني لم أجب هذه التحية بمثلها.. رغبة في

التظاهر بأنني نسيت ما تذكرته هي.. وعندئذ بدا لها أنها أخطأت الظن. فأشاحت بوجهها عني. ورفع الستار.

كنت قد رأيت مرغريت في المسرح مرارا.. ولاحظت دائما أنها لا تقيم أي وزن لما يجري على خشبة المسرح.أما أنا.. فلم أعبأ كذلك بالمسرحية التي تمثل أمامي.. وانصرف كل اهتمامي إلى مرغريت وحدها. ولكني حرصت أشد الحرص على ألا أدعها تشعر بذلك..

واستطعت وأنا أرقبها أن ألاحظ بأنها تتبادل النظرات من وقت لآخر مع سيدة تشغل المقصورة المقابلة لمقصورتها فأرسلت بصري إلى تلك السيدة ووجدت أنني أعرفها حق المعرفة.

كانت هذه السيدة قد حاولت احتراف التمثيل وأخفقت ثم اشتغلت بصنع الأزياء اعتمادا على صلتها الوثيقة بفتيات المسارح ومطارح اللهو.وقد بدا لي في الحال أن أتخذها واسطة لمقابلة مرغريت. فانتهزت فرصة وقوع بصرها على بطريق الصدفة. وأحنيت لها رأسي محييا.

وحدث ما توقعت.. فإنها أومأت إلي تدعوني إلى مقصورتها

كان اسمها برودنس دوفرنوي. وهي امرأة بدينة تناهز الأربعين. ومن أولئك النساء اللائي لا يحتاج الإنسان إلى كثير من الدهاء لحملهن على الافضاء إليه بما يريد.. فذهبت إلى مقصورتها.. وانتهزت إحدى الفرص. حين رأيتها تتبادل النظرات مع مرغريت. وسألتها:

– إلى من تنظرين؟

فأجابت:

– إلى مرغريت جوتييه.

– هل تعرفينها؟

– إنني أصنع ثيابها ثم إنني جارتها.

– وإذن فأنت تقيمين بشارع دانتان؟

– نعم.. بالمنزل رقم ٧ وغرفة ملابسها تطل على غرفتي.

– يقولون أنها فتاة ظريفة.

– ألا تعرفها؟

– كلا.. ولكني أتوق إلى التعرف بها.

– هل تريدني على أن أدعوها إلى هذه المقصورة؟

– كلا.. إنني أفضل أن تقدميني إليها أولا.

– في بيتها؟

– نعم.

– ذلك من الصعوبة بمكان.

– ولماذا؟!

– لأنها تعيش في رعاية (دوق) عجوز يغار عليها أشد الغيرة.

– تعيش في (رعايته) هذا تعبير ظريف...

– نعم.. ولكنه ينطبق على الواقع.. فذلك العجوز المسكين يجد من المتعذر عليه أن يصبح عشيقها.

وهنا قصت على (برودنس) كيف قابلت مرغريت ذلك الدوق في (بانير) ونوع الصلة التي قامت بينهما.

سألتها:

– وإذن فذلك هو سبب وجودها في المقصورة بمفردها.

– نعم...

– ولكن من ذا الذي سيرافقها إلى بيتها؟

– الدوق

– إنه سيحضر لمقابلتها إذن؟

– نعم..

– وأنت من ذا الذي سيرافقك إلى بيتك؟

– لا أحد

– إنني أضع نفسي في خدمتك.

– ولكني أرى معك أحد أصدقائك

– كلانا يضع نفسه في خدمتك.

– ولكن من هو صديقك هذا؟!

– إنه شاب دمث الخلق.. حاضر البديهة.. سوف يسره كثيرا أن يتعرف بك.

– هذا بديع.. اتفقنا.. ولنبرح المسرح عقب هذا الفصل

– ليكن لك.. وسأذهب لإخطار صديقي.

فقالت:

– اذهب إذن..

ثم هتفت على الأثر:

– آه.. أنظر. ها هو الدوق يدخل مقصورة مرغريت.

فنظرت.. ورأيت شيخا في نحو السبعين من عمره يجلس خلف الفتاة ويقدم إليها حقيبة حلوى.وبدأت مرغريت تتحدث إلى الدوق. فذهبت إلى صديقي جاستون وحدثته بما أعددت له ولي. فوافق.. وقصدنا معا إلى مقصورة (برودنس) ولكننا ما كدنا نتوسط الطريق. حتى صادفتنا مرغريت وهي مستندة إلى ساعد الدوق.. فأفسحنا الطريق لمرورهما. وشعرت وقتئذ

أنني على استعداد للنزول عن عامين من عمري مقابل أن أحل محل ذلك الدوق العجوز.

وبعد انتهاء الفصل.. استأجرنا مركبة ذهبت بنا إلى منزل برودنس في شارع دانتان.. وهناك دعتنا برودنس إلى الدخول لشهود ما عندها من أزياء مبتكرة كانت بغير شك موضع فخرها.. ولست بحاجة إلى القول بأننا رحبنا بهذه الدعوة.

خيل إلي وأنا أدخل بيت برودنس.. أنني أدنو من مرغريت بخطوات سريعة ثابتة.. فشرعت في توجيه الحديث نحو الهدف الذي أرمي إليه..

قلت محدثا برودنس:

– أظن أن الدوق العجوز يقضي سهرته الآن مع جارتك الحسناء؟!

فأجابت:

– بل أكبر الظن أنها الآن بمفردها.

فقال جاستون:

–إذن لابد أن حياتها تدعو إلى السأم والضجر.

فأجابت برودنس:

– إننا نقضي معا أكثر سهراتنا، وهي لا تكاد تعود من الخارج حتى تدعوني من نافذتها لأنها لا تستطيع النوم مبكرا.

– لماذا؟!

– لأنها مريضة بداء الصدر الصدر وهي دائما محمومة.

فسألت:

– أليس لها عشاق إذن؟

– لم ألاحظ قط أن أحد زائريها بقي في بيتها بعد انصرافي.. ولكن لا أستطيع أن أعرف ما يحدث بعد أن أتركها.. وكثيرا ما أقابل عندها الكونت (ن) الذي يعتقد أنه يستطيع تحقيق أحلامه بزيارتها في الساعة الحادية عشرة.. وغمرها بما تريد وما لا تريد من الحلي والمجوهرات ولكنها لا تميل إليه ولا تنيله من نفسها ما يريد.. وأظن أنها جد مخطئة،لأن الكونت شاب واسع الغنى. وقد قلت لها المرة تلو المرة: "هذا هو الشاب الذي يصلح لك يا بنيتي العزيزة".. ولكنها كانت توليني ظهرها وتقول بلهجة احتقار: "إنه على جانب عظيم من الغباوة".

وإني أعترف بأنه غبي حقا. ولكن ما أهمية غباوته ما دام يستطيع بماله وجاهه أن يحلها المحل الذي تريد.. بينما هذا الدوق العجوز يحتمل أن يموت في أي يوم.

إن الشيوخ من الرجال يمتازون دائما بأنانيتهم.. يضاف إلى ذلك أن أسرة هذا الدوق العجوز تلومه على الدوام.. وتعيب عليه صلته بمرغريت.. وهما سببان يحتمل معهما أن يترك الدوق شيئا لمرغريت عند

وفاته. وقد ذكرت لها كل ذلك.. فأجابتني: "إن الكونت رهن إشارتي وفي استطاعتي أن اتخذه عشيقا في أي يوم بعد موت الدوق".

ومهما يكن من أمر، فإن حياتها الآن تفتقر إلى كل أسباب اللهو والتسلية ولو كنت مكانها لطردت الدوق العجوز بين يوم وليلة.

إن هذا الشيخ المتصابي يدعوها ابنته.. ويعاملها كما لو كانت كذلك ويتعقبها إلى كل مكان تذهب إليه وإني واثقة من أن أحد أتباعه يجول الآن في الشارع أمام بيت مرغريت لمراقبة الخارجين.. أو على الأصح لمراقبة الداخلين.

فقال جاستون.. وهو يجلس أمام البيانو وينقر عليه بأصابعه:

– مسكينة مرغريت.. لم أكن أعرف عنها كل ذلك.. وإن كنت قد لاحظت عليها أنها أقل فرحا من ذي قبل.

فهتفت برودنس فجأة:

– صه..

فكف جاستون عن العزف.

قالت برودنس:

– أظن أنها تناديني..

فأصغينا. كان هناك حقا من ينادي: "برودنس"..

قالت برودنس:

– يجب الآن أن تنصرفا أيها السيدان الكريمان.

فأجاب جاستون ضاحكا:

– هل هكذا تفهمين معنى الكرم وحسن الضيافة؟

وقلت:

– ولماذا يجب أن ننصرف؟

فأجابت:

– لأنني سأذهب إلى مرغريت.

– سننتظر عودتك

– هذا مستحيل.

– سنذهب معك.

– هذا أسوأ وأسوأ..

فقال جاستون:

– إنني أعرف مرغريت ومن حقي أن أزورها.

– ولكن مسيو ديفال لا يعرفها

– سأقدمه إليها.

– هذا خارج عن الموضوع.

وهنا سمعنا صوت مرغريت وهي تنادي مرة أخرى: "برودنس"؟

فأسرعت إلى غرفة مجاورة. وفتحت نافذتها.. فتبعناها ووقفنا خلفها بحيث لا ترانا مرغريت.قالت مرغريت بلهجة الغضب:

– إنني أدعوك منذ عشر دقائق.

– ماذا تريدين مني؟

– أريدك أن تأتي إلي في الحال.

– لماذا؟

– لأن الكونت (ن) لا يزال هنا.. وهو يضجرني حتى الموت.

– ولكني لا أستطيع الذهاب إليك الآن.

– وماذا يمنعك؟

– عندي هنا شابان يرفضان الانصراف.

– قولي لهما أنك يجب أن تخرجي.

– لقد قلت لهما ذلك.

– حسنا.. اتركيهما. ومتى وجدا أنك خرجت فإنهما لا يبطئان في الانصراف.

– نعم.. إنهما ينصرفان ولكن بعد أن يقلبا كل شئ هنا رأسا على عقب.

– ولكن ماذا يريدان؟

– إنهما يرغبان في مقابلتك.

– من هما؟

– إنك تعرفين أحدهما.. وهو مسيو (جاستون دي ر...)

– آه.. نعم.. إنني أعرفه.. والثاني؟

– إنه مسيو أرمان ديفال.. فهل تعرفينه؟

– كلا.. ولكن لا بأس.. جيئي بهما.. أي إنسان إلا هذا الكونت.. إنني في انتظاركم.. فتعالوا في الحال.

وأغلقت المرأتان نافذتيهما.

لقد تذكرت مرغريت وجهي، ولكنها لم تذكر اسمي.. وقد كنت أوثر أن تذكرني بالامتعاض على أن تنساني كلية.

قال جاستون:

– كنت أعلم أنها سترتاح إلى مقابلتك.

فأجابت برودنس:

– إن (الارتياح) لا محل له هنا.. فهي لا تستقبلكما إلا لتطرد الكونت. فكونا أكثر منه لباقة ولطفا.. وإلا جلبتما علي نقمة مرغريت.

وغادرت برودنس بيتها فتبعناها.كنت أرتجف.. وقد خيل إلي أن سيكون لهذه الزيارة أثرها العميق في مستقبل حياتي.اضطربت أشد مما كنت مضطربا يوم قدمني إليها (أرنست) في مسرح (الاوبرا كوميك).

ودقت برودنس جرس الباب.. فوثب قلبي بعنف.وفتحت الباب إحدى الخادمات.. ورافقتنا إلى مخدع سيدتها.. وهناك رأيت شابا معتمدا بمرفقيه على الموقد.. ورأيت مرغريت جالسة تداعب البيانو بأناملها.. وشعرت بالملالة والضجر اللذين يسودان جو الغرفة.

كان الشاب متضجرا لتفاهة شأنه في عين الغانية.. والغانية متضجرة من وجود الشاب.

وسمعت مرغريت صوت برودنس فنهضت واقفة، ورمقت برودنس بنظرة شكر لأنها أسعفتها بالنجدة.. وقالت لنا:

– تفضلا بالدخول.

الفصل التاسع

قالت مرغريت لصديقي:

– طاب مساؤك يا عزيزي جاستون.. يسرني جدا أن أراك.. لماذا لم تأت إلى مقصورتي هذا المساء؟

– لقد خفت أن أكون متطفلا..

فقالت مرغريت:

– إن الأصدقاء لا يكونون قط متطفلين.

قالت ذلك ببطء، وتمهلت بعد كلمة (أصدقاء) كأنما لتؤكد للسامعين أن جاستون لم يكن قط إلا صديقا.. وليس أكثر من صديق.

قال جاستون:

– إذن هل تسمحين لي كصديق، أن أقدم إليك مسيو أرمان ديفال..؟

– إنني سمحت لبرودنس بذلك فعلا..

فقلت وأنا أحني قامتي باحترام:

– وفضلا عن هذا فقد سبق لي التشرف بمعرفتك يا سيدتي

فرفعت مرغريت حاجبيها البديعين، وحاولت أن تذكر أين قابلتني قبل ذلك، ولكنها لم توفق ولم تذكر شيئا.

قلت: وعلى كل حال فإنني أشكر لك أنك نسيت مقابلتنا الأولى.. فقد كان سلوكي ليلتئذ مدعاة للهزؤ والسخرية.

إننا تقابلنا في مسرح الأوبرا كوميك منذ عامين يا سيدتي، حيث قدمني إليك صديقي ارنست دي.. فقاطعتني وعلى شفتيها ابتسامة:

– آه.. تذكرت الآن.. ولكن سلوكك لم يكن يدعو إلى السخرية يا سيدي ولكن الذنب ذنبي، لأنني قابلتك بشئ من الخشونة التي ما زلت أعيبها في نفسي.. ولكنك غفرت لي بغير شك يا سيدي.

ومدت إلي يدها فقبلتها..

قالت:

– حقا.. إن من أسوأ صفاتي، إنني أميل دائما إلى السخرية ممن أقابلهم لأول مرة.. وهي عادة خبيثة سببها – كما يقول أطبائي – توتر أعصابي، وشدة آلامي، فأرجوك أن تصدق كلام الأطباء يا سيدي.

– ولكن يخيل إلي أنك الآن في خير حال..

– ربما.. ولكني كنت في أشد حالات المرض..

– أعلم ذلك..

– ومن أنبأك..؟

– كل انسان كان يعلم ذلك.. وقد ترددت مرارا على منزلك للاستفسار عن صحتك.. وسرني كثيرا أن أعلم نبأ ابلالك..

– ولكني لم أتلق قط بطاقة باسمك..

– ذلك لأنني لم أكن أترك بطاقتي..

– إذن فلعلك ذلك الشاب الذي اعتاد التردد على منزلي كل يوم للسؤال عني، والذي كان يرفض دائما أن يذكر اسمه للخدم..

– نعم.. إنني ذلك الشاب..

– لقد كان ذلك منك في غاية اللطف.. بل كان غاية الكرم

ورمقتني بإحدى تلك النظرات الفاحصة التي تكون بها المرأة رأيها في الرجل.. ثم تحولت إلى الكونت وقالت:

– مثل هذا الكرم لم يصدر منك أنت أيها الكونت..

فأجاب الكونت:

– ولكني لم أعرفك إلا منذ شهرين..

فقالت:

– وهذا السيد لم يعرفني إلا منذ خمس دقائق.. فما أغبى أجوبتك؟ وهكذا المرأة لا تعرف للرحمة معنى مع الرجل الذي لا يصيب هوى من نفسها..

فاحمر وجه الكونت.. وعض شفته.. وشعرت نحوه بشئ من الشفقة، فقد خيل إلى أنه يحبها، كما أحبها وأن صراحة مرغريت – ولاسيما على مسمع من الغرباء – قد خدشت كرامته وأذلت كبرياءه.

قلت لأغير مجرى الحديث:

– إنك كنت تعزفين على البيانو ساعة دخولنا.. فهل لك أن تعتبريني صديقا قديما وتواصلي العزف بلا حرج؟

فقالت وهي تدعونا إلى الجلوس.. وتتهالك على مقعد وثير:

– إن جاستون يعرف نوع الموسيقى التي أعزفها.. وهي تروق لرجل مثل الكونت، ولكني لا أريد أن أنزل بك عقوبة سماعها..

فقال الكونت وعلى شفتيه ابتسامة حاول أن يكسبها معنى التهكم:

– وإذن فأنت تحتكرين لي هذا (الكرم)؟

– إنه كل ما أستطيع اغداقه عليك..

كان واضحا أن الكونت المسكين غير موفق في أحاديثه معها، فنظر إليها ضارعا أن تقلل من قسوتها عليه..

قال مرغريت:

– وأنت يا برودنس.. هل فعلت ما طلبت إليك فعله؟

– نعم..

– هذا حسن.. ستسردين على التفاصيل فيما بعد.. فلا تنصرفي قبل أن أخلو بك فإن عندي ما أقوله لك..

فقالت:

– أخشى أن يكون وجودنا غير مرغوب فيه. وما دمت قد تعرفت بك للمرة الثانية لأزيل الأثر الذي تركته في نفسك المقابلة الأولى فإنني وصديقي نستأذنك الآن في الانصراف.

فقالت:

– كلا.. كلا.. فلست أعنيكما بكلامي.. بل على العكس أنني أرغب في بقائكما..

وهنا أخرج الكونت من جيبه ساعة ثمينة أطل فيها وقال:

– لقد حان موعد ذهابي إلى المنتدى.

فلم تجب مرغريت.. وتحرك الكونت من مكانه بجانب الموقد وقال:

– إلى اللقاء يا سيدتي..

فنهضت مرغريت واقفة وهي تقول:

– إلى اللقاء يا كونت.. أتنصرف بهذه السرعة..

– نعم.. أخشى أن يكون وجودي مدعاة لضجرك..

– إنك لا تضجرني أكثر من المعتاد ولكن متى سنراك مرة أخرى؟

– متى سمحت..

– إذن فالوداع..

كان ذلك منتهى القسوة.. ولكن من حسن الحظ أن الكونت كان شابا مؤدبا واسع الصدر.. فقنع بأن قبل اليد التي قدمتها إليه مرغريت.. وسار إلى الباب بعد أن حيانا.. وهناك رمق برودنس بنظرة ذات معنى، ولكنها هزت كتفيها كمن يريد أن يقول:

– وما حيلتي؟ لقد فعلت كل ما أستطيع فعله..

وصاحت مرغريت بوصيفتها:

– نانين.. رافقي الكونت إلى الباب الخارجي..

ثم سمعنا الباب الخارجي يفتح ويغلق. فتنفست مرغريت الصعداء وهتفت:

– ذهب أخيرا.. هذا الفتى كارثة على أعصابي.

فقال برودنس:

– يا ابنتي العزيزة.. إنك في الحق شديدة القسوة عليه، وهو الذي يعاملك بمنتهى اللطف والكرم.. وما زلت أرى على الموقد الساعة الثمينة التي أهداها إليك والتي لا يمكن أن يقبل ثمنها عن ألف من الفرنكات.

قالت ذلك.. وتناولت الساعة.. ونظرت إليها بعينين يتألق فيهما بريق الجشع..

وأجابت مرغريت:

– يا عزيزتي.. إنني إذا وضعت هداياه في كفة ميزان.. ووضعت أحاديثه معي في كفة أخرى.. وجدت أنني الخاسرة في هذه الصفقة..

– إن هذا الفتى المسكين يحبك..

– إذا كان لزاما على أن أصغي على جميع الذين يحبونني.. فإنني لن أجد متسعا من الوقت لتناول الطعام.

ونقرت بأناملها على البيانو، ثم تحولت إلينا وسألت:

– هل لكم في شئ من الشراب؟! إنني أريد قليلا من النبيذ

فقالت برودنس:

– أما أنا فأريد قليلا من الطعام.

فقال جاستون:

– هذا رأي حسن.. فهلموا بنا لتناول العشاء في أحد المطاعم.

فقالت مرغريت:

– كلا.. إننا سنتعشى هنا..

ودقت الجرس فأقبلت نانين.

قالت لها:

– ارسلي في طلب طعام للعشاء يا نانين.

– أي طعام تريدين يا سيدتي؟

– أي طعام يروقك.. لكن أسرعي..

وانصرفت نانين.. وقالت مرغريت بسرور الأطفال:

– نعم.. هذا رأي حسن.. سنتناول طعام العشاء هنا.. يا إلهي.. ما أثقل هذا الكونت الغبي!!

كان كل ما أراه من هذه الفتاة.. لا يزيدني إلا شغفا بها. كانت ساحرة بكل ما في هذه الكلمة من معنى.. حتى نحافتها كانت في ذاتها فتنة.

استغرقت في التفكير.. وليس في استطاعتي الآن أن أعلل المشاعر التي اعتملت في نفسي في ذلك المساء.. فقد امتلأت عطفا عليها.. واعجابا بها.. وكان ما بدا من استقلالها الروحي وصدوفها عن المادة بتجهمها لذلك الكونت الغني الرشيق الشاب الذي جاء يخطب ودها وهو

على استعداد لأن يضع ثروته وشرفه في موطئ نعليها.. كان ذلك كافيا في نظري لأن يمحو ما فرط من آثامها وفجورها وعبثها.

كان واضحا أنها لا تزال تحبو في حياة الفسق والرذيلة. فإن خطواتها الثابتة.. ومرونة قامتها.. وليونة جسدها.. واتساع عينيها. كل ذلك كان ينم عن غريزة ملتهبة تملأ الجو حولها بعبير الجاذبية الجنسية.. كما تملأ الجو بشذاها قنينة العطور التي لم يحكم غلقها. كانت لا تزال تحتفظ بكبريائها واستقلالها.. وهما شعوران إذا خدشا كانا جديرين بإثارة الانفعال الذي يخلق الاحتشام.

لزمت الصمت وأنا أفكر في هذا وأمثاله. إلى أن تحولت إلى مرغريت فجأة وقالت:

– وإذن فأنت الذي ذهبت تستفسر عني وأنا طريحة الفراش؟!

– نعم..

– هل تعرف أن ذلك كان بديعا ونبيلا؟! بماذا أستطيع أن أعبر لك عن شكري؟

– بالسماح لي برؤيتك في بعض الأحيان.

– تستطيع أن تراني كلما أردت. بين الخامسة والسادسة مساء. وبين الحادية عشرة ومنتصف الليل.

ثم راحت تعزف على البيانو وتترنم بإحدى الأغاني المبتذلة. وكان جاستون يعرف تلك الأغنية فاشترك معها في الترنم بها

قلت لمرغريت في غير مجاملة.. وبلهجة التوسل:

– لا تغني بالله هذه الأغنية المبتذلة..

فقالت وهي تبتسم:

– ما أشد حرصك على الفضيلة!!

وهنا قالت برودنس فجأة:

– ما هذا التمثال البديع؟

– وتناولت من أحد الأركان تمثالا صغيرا يمثل راعيا. وتأملته بإعجاب وجشع. فقالت مرغريت:

– خذيه إذا كان يروقك.

– ولكني أخشى أن أحرمك من هذه التحفة الجميلة.

– إنني أبغض هذا التمثال.. وكنت أوشك أن أنزل عنه لوصيفتي فخذيه إذا شئت.

فوضعت برودنس التمثال جانبا، وقالت لي:

– دعهما يعزفان.. وتعال معي لتشاهد المنزل.

ولا حاجة بي إلى وصف وكر مرغريت وما كان فيه من النفائس وأسباب الترف. فإنك رأيت كل شئ يوم بيع أثاثها بالمزاد.ولكننا عندما دخلنا غرفة الاستقبال. أشارت برودنس إلى صورة مثبتة بالجدار وقالت لي:

– انظر.. هذه صورة (الكونت دي ج..). لقد كان يحب مرغريت حب عبادة. وهو الذي رفعها بماله ونفوذه إلى هذه المكانة بين الغانيات.. فهل تعرفه؟

فأجبت:

– كلا.. ولكن صورة من هذه؟

وأومأت إلى صورة أخرى. فأجابت:

– هذا هو (الفيكونت دي د...) وقد اضطر أن يهجر مرغريت!

– وكيف؟..

– إنه أنفق عليها كل ثروته حتى أفلس..

– لا شك أنها كانت تحبه.

– لا أعلم.. إنها فتاة غريبة الأطوار. وقد كانت في المسرح ساعة رحيله..

وفي هذه اللحظة.. أقبلت (نانين) ودعتنا إلى المائدة.

ولما دخلت غرفة الطعام.. رأيت مرغريت مستندة إلى أحد الجدران وجاستون ممسك بكلتا يديها. وهو يقول لها كلاما بصوت خافت، ولكني سمعت صوتها حين أجابته:

– إنك مجنون. أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أجيبك بشئ.. أتعرفني منذ عامين.. ثم تطلب إلي الآن أن أكون لك... نحن النساء نسلم أنفسنا منذ البداية.. أو لا نسلمها أبدا.

هلموا بنا إلى الطعام.وأفلتت من يد جاسنتون.. واتخذت مكانها أمام المائدة بيني وبينه وقالت لنانين:

– إذا طرق الباب طارق فقولي له أنني لا أستقبل الليلة أحدا وكان صدور هذا الأمر في الساعة الواحدة صباحا!!

وأكلنا.. وشربنا، وضحكنا.. وبلغ مرحنا مداه.. وفكت الفتاة لسانها من عقال الاحتشام.. فتبودلت بعض النكات المبتذلة التي كنت أرى في الظروف العادية أنها تلوث شفاه قائليها.. ولكنها قوبلت منا بعاصفة من الضحك والتصفيق.

وقد أردت في البداية أن ألقي بنفسي في تيار هذا المرح.. وأندمج في ذلك العبث. ثم وجدت بالتدريج أنني أصبحت بمعزل عن الضجيج وأن قدحي لا يزال مليئا.. وشعرت بالحزن والألم.. عندما رأيت تلك المخلوقة الحسناء التي لا تتجاوز العشرين من عمرها.. وهي تحتسي الخمر بغير حساب.. وتمعن في الضحك كلما بعدت الدعابة عن الأدب واللياقة.

على أن هذا المرح.. وهذا الاسلوب الوضيع من أساليب الكلام والدعابة.. وإن يكن في العادة مظهرا من مظاهر الاستهتار والفجور إلا أنني رأيت فيه – فيما يختص بمرغريت – نتيجة محتومة لرغبتها الشديدة في

أن تنسى.. أو عرضا لا مفر منه.. من أعراض اضطرابها العصبي،كانت كلما احتست كأسا.. احمر وجنتاها بوهج الحمى واستبد بها السعال حتى أرغمها على اسناد رأسها على مقعدها. وضغطت صدرها بيديها. وتنهدت. عندما فكرت في فتك هذا الاسراف في ذلك الجسد النحيل.

وأخيرا جاءت الازمة التي كنت أتوقعها وأخشاها..فقد أصيبت مرغريت بنوبة سعال خيل إلي معها أن صدرها يتمزق.وضغطت منديلها على شفتيها..ولما رفعت المنديل عن فمها.. كان ملطخا ببقع من الدم. فنهضت واقفة.. ووثبت إلى غرفتها.

هتف جاستون:

– يا إلهي.. ماذا أصاب مرغريت؟

فأجابت برودنس:

– إنها أسرفت في الضحك حتى تفجر الدم من رئتيها.. ولكن لا خوف عليها.. فذلك يحدث لها كل يوم... أتركاها وشأنها.. فإنها تفضل الوحدة في مثل هذه الحالة.

ولكني لم أر هذا الرأي. فانطلقت في أثر مرغريت رغم نداء برودنس ونانين.

الفصل العاشر

شمعة واحدة موضوعة على إحدى الموائد كانت تضئ غرفة مرغريت. وعلى ضوء هذه الشمعة رأيت مرغريت ممددة على أريكة، وقد حلت أزرار ثوبها ووضعت إحدى يديها على صدرها وتدلت يدها الأخرى بجانبها.. ورأيت بجانب الشمعة وعاء فضيا مليئا بالماء إلى منتصفه وقد تلوث الماء بخيوط من الدم.

كانت مرغريت شديدة الشحوب.. وهي تلهث.. وتلتقط أنفاسها بعناء شديد بجانبها. وتناولت يدها المتدلية، فهمست وهي تبتسم:

– آه.. أهذا أنت؟!

ولابد أن وجهي كان ينم عن حزني وألمي لأنها سألت على الأثر:

– هل أنت مريض كذلك؟!

– كلا.. ولكن أنت.. ألا زلت تتألمين؟

– قليلا..

وجفت الدموع التي أرسلها السعال من عينيها. وقالت:

– لقد ألفت هذا الألم.

فقلت لها بصوت يرتجف من الانفعال:

– إنك تقتلين نفسك يا سيدتي.. ليتني كنت واحدا من أصدقائك أو أقاربك. إذن لحظرت عليك أن توردي نفسك موارد الهلكة هكذا.

فأجابت بشئ من المرارة:

– آه.. أؤكد أنه ليس ثمة ما يستوجب اهتمامك إلى هذا الحد.. انظر. كيف يهتم الآخرون بي؟ إنهم يعلمون أنه لا يمكن عمل شئ من أجلي..

ثم نهضت.. وتناولت الشمعة ووضعتها على حافة الموقد. ونظرت إلى نفسها في المرآة.

وقالت وهي تمر بأصابعها في شعرها المضطرب.

– ما أشد شحوبي.. ولكن لا بأس.. فلنعد إلى المائدة أيها الصديق.. ألا تأتي؟

ولكني لم أتحرك من مكاني..

ولابد أنها شعرت بشدة انفعالي بعد هذا المنظر الذي شهدته، لأنها اقتربت مني.. وبسطت إلى يدها وهي تقول:

– تعال.. هلم بنا

فتناولت يدها.. ورفعتها إلى شفتي.وعندئذ سقطت على يدها – بالرغم مني – دمعة حبستها طويلا.هتفت وهي تجلس بجانبي:

– ماذا؟ هل أنت طفل؟ أنت تبكي.. فماذا حدث؟.

– قد أبدو في نظرك غرا ساذجا.. ولكن الواقع إن ما رأيته الآن أحزنني وآلمني.

– ما أكرم خلقك!! ولكن ماذا تنتظر مني؟ إنني لا أستطيع أن أنام. ويجب أن أرفه عن نفسي بطريقة ما.. أو بعد.. فإن حياة أو موت فتاة من طرازي لا يقدم ولا يؤخر.يقول الأطباء إن الدم الذي ينبثق من فمي.. مصدره الحلق.. وأنا أتظاهر بتصديقهم.. وذلك كل ما أستطيع فعله.

فقلت لها بحدة:

– اصغي إلي يا مرغريت.. إنني لا أعلم أي دور قدر لك أن تلعبيه في حياتي ومستقبلي، ولكني أعلم فقط أنه لا يوجد في هذه اللحظة انسان – حتى ولا أختي – يهمني أمره.. كما أهتم بأمرك.. وقد كان ذلك هو الحال منذ وقع بصري عليك أول مرة، لذلك أضرع إليك أن تعني بنفسك.. وألا تصري على هذه الحياة التي تحيينها.

– إذا عنيت بنفسي فإنني أموت.. والواقع.. إن هذه الحياة المضطربة المحمومة هي وحدها ما يمسك زمامي.. أضف إلى ذلك أن "عناية المرأة بنفسها" أمر لا يتيسر إلا للنساء الشريفات اللاتي يستمتعن بحياة الأسرة، وبصداقة الأصدقاء.. أما نحن! فإننا لا نكاد نعجز عن إرضاء عشاقنا وإشباع صلفهم.. وإرضاء شهواتهم حتى ينفضوا من حولنا..

وتتعاقب علينا الليالي الطويلة بعد الأيام الطويلة.إنني أعرف كل ذلك.. لأنني لزمت الفراش شهرين.. فلم يزرني أحد بعد الاسبوع الثالث.

فأجبت:

– صحيح إنني لا تربطني بك إحدى الصلات.. ولكن إذا سمحت لي بأن أسهر عليك كما يسهر الأخ على أخته.. فإنني لا أتركك حتى تبرأى من سقمك.ومتى استرددت قواك.. فلك – إذا شئت – أن تعودي إلى الحياة التي تحيينها الآن.. ولكني موقن من أنك سوف تؤثرين الحياة الهادئة الوادعة لأنها التي ترد عليك سعادتك.. وتحفظ لك جمالك.

– هذه هي خواطرك الليلة فقط، لأن الخمر أدخلت الكآبة على نفسك. ولكن سوف يفرغ صبرك، ويضيق صدرك.. قبل أن تفعل شيئا مما تقول.

– اسمحي لي أن أذكرك يا مرغريت بأنك لزمت الفراش شهرين.. وإنني كنت أتردد على بيتك يوميا طيلة هذين الشهرين للاستفسار عنك والاطمئنان على صحتك.

– هذا صحيح.. ولكن لماذا لم تصعد إلى غرفتي؟

– لأنني لم أكن تعرفت بك بعد

– هل مع فتاة من طرازي يحرص الناس على مثل هذه التقاليد؟

– من واجب الرجل دائما أن يحترم المرأة.. أو أن هذا على الأقل من مبدأي.

– وإذن فأنت على استعداد للعناية بي والسهر علي؟

– نعم..

– وهل تقضي النهار كله بجانبي؟

– نعم..

– والليل كذلك؟

– إذا لم يكن في ذلك ما يضايقك؟

– وماذا تسمى هذا؟

– اسميه اخلاصا.

– وعن أية عاطفة يصدر هذا الاخلاص؟!

– عما أشعر به من العطف عليك.

– إذن فأنت تحبني؟ قل ذلك في الحال.. فذلك أبسط من اللف والدوران.

– ربما كنت أحبك.. ولكن إذا كان مقدرا لي أن أصارحك بذلك يوما ما فإنني لا أفعل ذلك الآن.

– من الأفضل ألا تصارحني بذلك أبدا.

– لماذا؟

– لأن مثل هذا الاعتراف لا يسفر إلا عن أحد أمرين.

– وهما..

– أما أن أردك. فتغضب أو أرضي بك فتكون لك عشيقة مريضة حزينة..

لم أجبها.. فقد عقد الألم لساني بعد صراحتها التي تشبه الاعتراف.. وبعد الذي شاهدته من بواطن حياتها التعسة المستهترة تحت غطاء براق.

قالت مرغريت:

– هلم بنا.. إننا نتحدث فيما لا طائل تحته.. ناولني يدك. وهلم بنا نعود إلى غرفة الطعام.. قبل أن يدهشهم غيابنا.

– عودي إذا شئت.. ولكني أرجوك أن تسمحي لي بالبقاء هنا..

– لماذا؟

– لأن مرحك يحزنني.

– حسنا.. سأكون حزينة إذن

– اصغي إلي يا مرغريت.. دعيني أقول لك كلاما لا شك أنك سمعتيه قبل الآن.. وطرق أذنيك مرارا حتى نفرت منه.. وضاعت ثقتك فيه ولكنه مع ذلك حقيقي.

فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الأم حين تصغي إلى سخافات ابنها:

– وهذا الكلام هو..

– هو أنني منذ رأيتك.. وأنت تحتلين مكانة في حياتي.. وقد حاولت مرارا أن أقصي صورتك من ذهني.. ولكن عبثا حاولت.. واليوم.. بعد عامين لم أرك في خلالها، وبعد أن عرفتك.. وعرفت ما أنت عليه من خلق.. أشعر بأنك أصبحت أشد سيطرة على قلبي وعقلي مما كنت في أي وقت مضى.. بل وأشعر بأنك صرت شيئا ضروريا لحياتي.. وبأنني أجن، ليس فقط إذا صددتني.. وإنما كذلك إذا لم تسمحي لي بأن أحبك.

– في هذه الحالة أيها التعس يجب أن أفعل ما فعلته مدام (د...) إذ قالت لرجل يخطب ودها "أنت إذن واسع الغنى؟!" أفلا تعلم أني أنفق سبعة آلاف من الفرنكات شهريا.. وإن هذا التبذير أصبح ضروريا لكياني؟!

ألا تشعر أيها الصديق المسكين بأنني إذا عاشرتك فسأجلب عليك الدمار والخراب في أقصر وقت.. وأن أسرتك سوف تنبذك لأنك تعاشر مخلوقة مثلي؟ أحبني إذا شئت.. أحبني كصديقة عزيزة.. ولكن لا شئ غير ذلك وتعال لمقابلتي كلما أردت.. فنتحدث معا.. ونضحك معا.. ولكن لا تبالغ في أمري.. ولا تنخدع بقيمتي.. فإنني في الحقيقة لا أساوي شيئا مذكورا.

إنك طيب القلب. وبحاجة إلى من يحبك.. وأنت كذلك في مقتبل العمر.. ولك ثروة من الاحساس النبيل تنفر من الحياة التي تحياها مثيلاتي.. فأمنح حبك إلى إحدى العذارى الطاهرات.. أو أخطب ود إحدى النساء الشريفات.. أما أنا...

وصمتت لحظة واستطردت:

- إنني أتحدث إليك في صراحة.

وفي هذه اللحظة أقبلت برودنس وهي تصيح:

- يا للشيطان.. ماذا تفعلان هنا كل هذا الوقت؟

فأجابت مرغريت:

- إننا نتحدث. فدعينا لحظة.. وسنلحق بكما.

- حسنا.. حسنا.. على رسلكما يا ولدي. تحدثا ما شئتما.

قالت ذلك في خبث.. وكانت أشد خبثا حين أغلقت الباب وراءها

ولما انفردنا.. قالت مرغريت:

- اتفقنا إذن على ألا تحبني بعد الآن؟

- إنني سأرحل.

- إلى هذا الحد؟

والواقع أن التقهقر أصبح مستحيلا.. يضاف إلى ذلك أن جاذبيتها لي كانت لا تقاوم.. فهذا المزيج بين الحزن والمرح.. وهذه الصراحة وهذه الحياة الفطرية.. بل وهذا المرض الذي يرهف مشاعرها.. ويحرك غرائزها.. كل ذلك أشعرني بأنني إذا لم أنجح في السيطرة عليها لأول وهلة.. فإنني أفقدها إلى الأبد.

قالت:

– صبرا.. صبرا.. هل أنت جاد في كل ما قلت؟

– نعم..

– ولكن لماذا لم تصارحني قبل ذلك؟

– متى كان ينبغي على أن أصارحك؟

– غداة لقائنا في (الاوبرا كوميك) مثلا

– أظن أنك كنت تنفرين مني لو قابلتك وقتذاك.

– ولماذا؟!

– لأن سلوكي كان سخيفا..

– هذا صحيح.. ولكن هل كنت تحبني في ذلك الوقت؟

– نعم..

– ومع ذلك فإنك انصرفت من المسرح إلى دارك، حيث استمتعت بالنوم الهنئ.. دون أن يزعجك ما كان بيننا.

– أخطأت.. فهل تعلمين ماذا فعلت في تلك الليلة؟

– كلا..

– إنني تبعتك إلى المطعم الانجليزي وانتظرتك هناك. ثم تبعت المركبة التي أقلتك مع رفاقك الثلاثة.. ولما رأيتك تدخلين المنزل بمفردك شعرت بسعادة لا توصف.

فانفجرت مرغريت ضاحكة..

– لماذا تضحكين؟

– لا شئ..

أرجو أن تصارحيني.. وإلا اعتقدت أنك ما زلت تسخرين مني..

– ألا تغضب إذا صارحتك؟

– وبأي حق أغضب؟

– اعلم إذن.. ما دمت تريد أن تعلم.. إنني دخلت المنزل بمفردي لسبب معقول.

– هو...

– هو إن بعضهم كان ينتظرني في الداخل..

لو أنها طعنتني بخنجرها ما آلمتني الطعنة كما تألمت في تلك اللحظة.

نهضت واقفا. وبسطت إليها يدي وأنا أقول:

– وداعا.

فأجابت:

– كنت أعلم أنك ستنزعج وتتألم. ذلك شأن الرجال جميعا.. إنهم يصرون على معرفة ما يزعجهم ويغضبهم.

قلت بلهجة فاترة، لكي أثبت لها أنني شفيت إلى الأبد من جنوني:

– أؤكد لك أنني لست غاضبا. لقد كان طبيعيا أن ينتظرك بعضهم. وطبيعي الآن أن أستأذن في الانصراف.

– لعل هناك أيضا من ينتظرك في منزلك؟

– كلا. ولكن يجب أن أذهب.

– وداعا إذن.

– أتطردينني؟

– كلا. إنني لا أطردك .

– لماذا تعملين إذن على ايلامي؟

– وكيف آلمتك؟!

– قلت لي أن بعضهم كان ينتظرك..

– لم أتمالك من الضحك عندما تصورت سرورك لمجرد دخولي إلى منزلي منفردة. بينما كان هناك سبب وجيه لذلك.

– في بعض الأحيان يجد الإنسان في ناحية من نواحي ضعفه مصدرا للسعادة. ومن القسوة هدم هذه السعادة. بهدم مصدرها..

– من تظنني إذن أيها المسكين؟ إنني لست من العذارى الطاهرات ولست من الدوقات أو المركيزات. ثم إنني لم أعرفك إلا اليوم. وليس من حقك على أن أقدم لك حسابا عن أعمالي وسلوكي. وعلى فرض أنني أصبحت صاحبتك في أحد الأيام. فيجب أن تعلم حق العلم بأنه كان لي قبلك عشاق كثيرون. إنني في الحق لم أر قط رجلا مثلك.

– ذلك لأن أحدا لم يحبك قط كما أحبك.

– تكلم.. وكن صريحا.. هل تحبني حقا إلى هذا الحد؟

– إنني أحبك إلى أقصى ما يمكن الرجل أن يحب امرأة.

– وقد استمر هذا الحب منذ...

– منذ رأيتك في أحد الأيام تدخلين متجرا للأزياء في ميدان الأوبرا.. وذلك منذ ثلاثة أعوام تقريبا.

– هل تعلم أن ذلك جميل منك.. وماذا يجب أن أصنع لأعبر لك عن وفائي لهذا الحب الكثير؟

فأجبت وقلبي يكاد يثب من حلقي:

- حاولي أن تحبيني قليلا.

وشعرت.. رغم الابتسامة الساخرى التي لم تغب عن شفتيها طيلة هذا الحديث. إنها بدأت تشاطرني عاطفتي.. وإن الساعة التي طالما انتظرتها بقلق وفروغ صبر قد دنت.

قالت:

- والدوق؟

- أي دوق؟

- صديقي العجوز الغيور.

- إنه لن يعلم بما بيننا.

- وإذا علم؟

- أتحسبينه يغفر لك إذا علم؟

- كلا.. وا أسفاه.. إنه يعجرني.. ولا أعلم ما يكون من أمري بعد ذلك.

- إنك تجازفين بهجرانه فعلا من أجل رجل سواي.

- وكيف علمت ذلك؟

– من الأوامر التي أصدرتها في بداية السهرة. فقد أمرت وصيفتك بألا تسمح لكائن من كان بزيارتك هذه الليلة.

– ليس لك أن تأخذ على ذلك.. فما أصدرت هذا الأمر إلا لأستقبلك أنت وصديقك.

وكنت قد اقتربت منها وأحطت خصرها بساعدي.. فلم تنفر مني.. واسندت جسدها بلطف على يدي.

همست:

– لو تعلمين فقط كم أحبك؟!

– أتقول حقا؟

– أقسم لك.

– حسنا.. إذا وعدتني بأن تطيع رغباتي.. دون أن تسأل.. أو تعترض.. فإنني ربما.. أحببتك.

– أعدك بأن أفعل كل ما تريدين.

– ولكني أنذرك من الآن.. بأنه يجب أن يكون لي مطلق الحرية في أن أفعل ما يروقني.. دون أن أقدم لك حسابا أو إيضاحا.إنني بحثت طويلا عن عاشق شاب لا يعرف الخبث.. وسوء الظن أستطيع أن أحبه.. دون أن يرى من حقه أن يكون محبوبا.. ولكن لم أوفق قط إلى مثل هذا العاشق.. ذلك لأن الرجال بدلا من أن يكونوا راضين قانعين بأننا نعطيهم

من أنفسنا مرارا ما كانوا يحلمون به ولو مرة واحدة.. تراهم يطالبوننا بأن نقدم لهم حسابا.. عن الماضي والحاضر بل وعن المستقيل كذلك.. وكلما اشتدت الألفة بيننا وبينهم.. تضاعفت رغبتهم في السيطرة علينا.. واشتد حرصهم على كل امتياز ينالونه منا. فإذا خطر لي الآن أن أتخذ لنفسي عشيقا جديدا.. فإنني أشترط فيه هذه الصفات الثلاث النادرة.. وهي الثقة والخضوع والكتمان.

– هذا حسن.. ستجدينني كما تريدين.

– سوف نرى

– ومتى نرى؟

– فيما بعد..

– ولماذا لا يكون الآن؟

– لأن ليس من الممكن دائما تنفيذ المعاهدات يوم إبرامها.

فقلت وأنا أضمها إلى صدري:

– ومتى أراك مرة أخرى؟

– غدا بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل، فهل يرضيك ذلك؟

– هل أنت بحاجة إلى مثل هذا السؤال؟

– لا تقل عن ذلك كلمة واحدة لصديقك أو لبرودنس أو لأي إنسان آخر.

– ثقي بي.

– والآن.. قبلني، ولنعد إلى غرفة الطعام.

وقدمت إلى شفتيها. ثم أصلحت شعرها. وعدنا إلى غرفة الطعام وهي تغني وأنا شبه مجنون.

ولما اقتربنا من باب الغرفة. تريثت قليلا. وقالت لي في همس:

– قد يبدو لك غريبا ما رأيت من استعدادي لقبولك بمثل هذه السرعة. فهل تعرف السبب.

فنظرت إليها متسائلا، وتناولت يدي، ووضعتها على قلبها وكان يخفق بشدة واستطردت:

– السبب هو أنني لن أعيش طويلا، وأنني قررت لذلك أن أحيا حياة سريعة.

– أضرع إليك ألا تنغصي سعادتي بمثل هذا الكلام.

فقالت ضاحكة:

– لا تحزن ولا تبتئس. فمهما تكن حياتي قصيرة، فإنها ستكون أطول عمرا من حبك.

ودخلت الغرفة وهي تغني في جذل. ثم لاحظت أن برودنس وجاستون وحدهما في الغرفة فسألت:

– وأين نانين؟

فأجاب برودنس:

– إنها نائمة في غرفتك.. في انتظار موعد رقادك.

– مسكينة هذه الفتاة.. إنني أقتلها بسهراتي الطويلة.. هلموا أيها السادة.. لقد حان انصرافكم.

وبعد بضع دقائق.. استأذنت وصديقي في الانصراف.. وشدت مرغريت على يدي وهي تودعني.. ولكنها استبقت برودنس معها.

سألني جاستون ونحن في طريقنا:

– ماذا كنت تقول لمرغريت؟

– إنها ملاك.. وأعتقد أنني غرقت في حبها.

– هذا ما توقعته.. هل اعترفت لها بحبك؟

– نعم

– وهل وعدتك بشئ؟

– كلا.

– إنها تختلف عن برودنس.. و لن تصدقني إذا قلت لك أن هذه المرأة البدينة لا تزال تحتفظ بحرارة الشباب.

الفصل الحادي عشر

وعندئذ توقف ارمان عن الكلام للحظات، وقال لي:

– هل لك أن تغلق النافذة؟ لقد بدأت أشعر بالبرد... وسألوذ بفراشي.

فأغلقت النافذة.. واضطجع ارمان في فراشه.. وأسند رأسه إلى الوسادة لحظة.. شأن الرجل الذي أضناه السير الطويل.. أو أمضته الذكريات المؤلمة.

قلت له:

– لعلك أسرفت في الكلام.. فهل أنصرف وأتركك لتنام ونرجئ ختام القصة إلى يوم آخر؟

– هل أسأمك حديثي؟

– على العكس.. إنه أثار فضولي.

– إذن سأمضي في قصتي.. فإنك إذا تركتني وحيدا فلن يغمض لي جفن.

واستطرد:

– وعندما عدت إلى منزلي. أخذت أسترجع في ذهني ما حدث لي في ذلك المساء.. منذ رأيت مرغريت إلى أن قطعت على نفسها ذلك العهد.. وكيف حدث كل ذلك بسرعة.. وبغير تدبير سابق، حتى خيل إلي في بعض الأحيان أن ذلك كله.. لم يكن إلا وهما أو حلما.

على أن هذه لم تكن أول مرة تعد فيها فتاة مثل مرغريت بأن تسلم نفسها لأحد عشاقها غداة اليوم الذي عرفته فيه.

وقد كان يحسن بي أن أفكر على هذا النحو.. ولكن الأثر الذي تركته مرغريت في نفسي أضلني عن سبل التفكير السليم فرفضت أن أرى فيها بغيا كسائر البغايا.. ودفعني الغرور الغريزي في نفوس الرجال جميعا إلى الاعتقاد بأنها تبادلني عاطفتي وتشعر نحوي بمثل ما أشعر نحوها.

ومع ذلك فقد كانت لدي الأدلة التي تدحض هذا الاعتقاد. وطالما سمعت بأن حب مرغريت سلعة تباع وتشترى. ويرتفع ثمنها ويهبط وفقا للظروف ونزولا على قانون العرض والطلب. ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الذي سمعت وبين إصرار مرغريت على نبذ الكونت الشاب الذي قابلناه في بيتها؟..

رب قائل يقول أن هذا الكونت لم يصب هوى من نفسها.. وأنها وهي التي تنعم بالرفاهة في كنف الدوق. إذا خطر لها أن تتخذ لنفسها عشيقا جديدا.. فإنها تفضل إن يكون هذا العشيق رجلا تميل إليه.. ولكن إذا صح

ذلك.. فلماذا صدت جاستون. وهو الظريف. الغني العذب الحديث. وآثرتني عليه.. أنا الذي كنت في المقابلة الأولى حقيقا بسخريتها وهزؤها؟

حقيقة أن حوادث لحظة واحدة قد تؤثر في حياتنا ومصائرنا كما لا تؤثر حوادث عام كامل.لقد كنت أنا الوحيد الذي آلمه أن يراها تفر من غرفة الطعام وصدرها يكاد يتمزق من تأثير السعال. فتبعتها.. ولم أكتمها تأثري.

ولعل هذا الحادث. مضافا إليه اهتمامي بالاستفسار عنها في إبان مرضها. قد جعلها ترى في رجلا يختلف عن سائر الرجال الذين قابلتهم من قبل. ولعلها وجدت أنها تستطيع أن تثيب هذا الشعور الكريم من ناحيتي، بأن تنيلني من نفسها ما أنالته غيري مرارا حتى لم يبق له عندها أية أهمية.

كل هذه الفروض كانت محتملة كما ترى.. ولكن مهما يكن الدافع إلى رضاها. فهناك أمر واحد مؤكد. هو أنها رضيت وذلك كل ما يهمني.

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة. كنت نهبا موزعا بين الشك واليقين أشعر تارة بأنني لست من الأناقة والرشاقة والغنى بحيث يجوز لي أن أملك هذه المرأة. وأحس تارة أخرى بالخيلاء، لأنني ملكتها. أو أوشكت أن ملكها.

وداخلتني الشكوك والريب. وأشفقت أن يكون شغف مرغريت بي، هو فتنة عارضة. تدوم يوما أو أسبوعا أو أكثر أو أقل. ثم تكون القطيعة الفجائية والفرقة الابدية. وبلغ من تشاؤمي أن فكرت في الامتناع عن مقابلتها في اليوم التالي.. والكتابة إليها بما يهجس في نفسي.

ثم انتقلت من التشاؤم واليأس.. إلى الثقة التي لا تحد. والأمل الذي لا نهاية له.. فرأيت المستقبل في باقة من الورود.. وقلت لنفسي سوف تدين لي هذه الفتاة بشفاء جسدها. وبروء روحها.. وسوف أقضى معها بقية حياتي.. وأجد في حبها من السعادة ما لا أجده في حب أطهر العذارى.ولا أستطيع في الواقع أن أعدد لك آلاف الأفكار والخواطر التي صعدت من قلبي.. إلى عقلي.. وتبخرت شيئا فشيئا مع النعاس الذي غلبني عند مطلع الفجر.

وعندما استيقظت في اليوم التالي كانت الساعة الثانية مساء.. وكان الجو بديعا.

ولست أذكر أن الحياة كانت في نظري أجمل ولا أثمن مما بدت لي في ذلك اليوم.. وقد زالت الشكوك والريب التي طافت بنفسي في اليوم السابق.. ولم يبق إلا أعذب الآمال والأحلام.ووثب قلبي.. وتوترت أعصابي توترا ممتعا عندما تذكرت موعدي مع مرغريت.

كانت غرفتي أضيق من أن تتسع لسعادتي.. فارتديت ثيابي على عجل. وانصرفت من المنزل، ولكني لا أدري كيف قضيت النهار.

مشيت كثيرا.. ودخنت كثيرا.. وتحدثت إلى الكثيرين.. فلما كانت الساعة السابعة.. لم أعد أذكر أين ذهبت؟ ومن قابلت؟ وماذا قلت؟

وكل ما أذكره.. إنني عدت إلى المنزل. وقضيت ثلاث ساعات في إصلاح هندامي.. ونظرت مئات المرات إلى ساعتي. وإلى ساعة الجدار ولكنهما كانتا لسوء الحظ متفقتين.. لا تسبق إحداهما الأخرى.

ولما دقت الساعة نصفا بعد العاشرة. انطلقت إلى شارع دانتان. ونظرت إلى نوافذ مرغريت.. فرأيت النور ينبعث منها.

* * *

طرقت الباب.. وسألت البواب هل الآنسة مرغريت جوتييه في منزلها.. فأجاب أنها لا تعود أبدا قبل الساعة الحادية عشرة.

نظرت إلى ساعتي..كانت أظن أنني سرت على مهل. فوجدت أنني قطعت المسافة بين شارع بروفاس (حيث أقيم) وشارع دانتان (حيث تقيم مرغريت) في خمس دقائق؟

أخذت أسير في الشارع جيئة وذهابا. وكانت حوانيته مغلقة في تلك الساعة.. وقد ساده الصمت. والسكون. واقفر من السابلة.وبعد نصف ساعة. أقبلت مرغريت. فهبطت من مركبتها ونظرت حولها كأنها تبحث عن انسان. واقتربت منها وهي تهم بأن تقرع الباب. وقلت لها محييا:

– طاب مساؤك.

فهتفت بصوت لا ينم عن سرورها بلقائي:

– آه.. أهذا أنت؟

– ألم تسمحي لي بزيارتك الليلة؟

– هذا صحيح.. لقد نسيت..

ودخلنا المنزل معا.. وسألت مرغريت وصيفتها:

– هل عادت برودنس إلى بيتها؟

– كلا يا سيدتي..

– قولي لخادمتها إنني أريد مقابلتها بمجرد عودتها. ولكن أضيئي غرفة الاستقبال أولا وإذا سأل عني سائل فقولي أنني لم أعد، وإني لن أعود الليلة.

وكان يبدو عليها أنها في شغل بأمر ما. فلم أدر أيهما أنسب.. الصمت أو الكلام..

وقصدت مرغريت إلى مخدعها. وبقيت في مكاني. فقالت:

– تعال.

وخلعت قبعتها ومعطفها. وتهالكت في مقعد كبير بالقرب من الموقد..

قالت:

– ماذا عندك من الأنباء؟!

– لا شئ.. إلا أنني أخطأت في زيارتك الليلة

– لماذا؟

– لأن الانزعاج يبدو عليك، ولا شك أن وجودي يضايقك.

– إنك لا تضايقني. ولكني مريضة. ولم أذق طعم النوم وأشعر بصداع شديد.

– هل انصرف ليتسني لك الرقاد؟

– كلا.. في استطاعتك أن تبقى.

وفي هذه اللحظة دق الجرس، فحركت يدها في ضجر وهتفت:

– من هذا الذي يقرع الجرس؟!

ودق الجرس مرة أخرى فقالت:

– إذن فلا يوجد من يفتح الباب.. ويجب أن أفتحه بنفسي.

ونهضت وهي تقول لي:

– انتظرني هنا..

ومرت بين الغرف وفتحت الباب.. فأرهفت أذني. وأنصت.

ودخل الشخص الذي فتحت له الباب.. وتكلمت. فعرفت في الحال صوت (الكونت دي نـ...) الذي رأيته عندها بالأمس.

سألها:

– كيف أنت هذا المساء؟

فأجابته بلهجة جافة:

– إنني مريضة..

– هل يزعجك وجودي؟

– ربما..

– يا إلهي.. ما أشد قسوتك يا عزيزتي مرغريت!! ماذا فعلت بك ليكون جزائي منك هذه الخشونة؟!

– إنك لم تفعل بي شيئا.. ولكني مريضة ويجب أن أذهب إلى فراشي.. وأكون شاكرة لك إذا تفضلت بالانصراف.. يا إلهي.. ألا أعود إلى منزلي يوما دون أن أراك تطرق بأبي بعد خمس دقائق؟! ماذا تريد مني؟ إن أكون عشيقتك؟ لقد قلت لك مائة مرة أنك تضايقني إلى أقصى حد.. وإنه يحسن بك أن تذهب إلى سواي.. وأقول لك الآن للمرة الأخيرة إنني لا أريد أن يكون لي بك شأن.. فهل فهمتني؟! وداعا إذن.. آه.. ها هي نانين.. إنها سترافقك إلى الباب. طاب مساؤك. ولم تنطق بكلمة أخرى.. ولم تصغ إلى كلمة واحدة من العبارات التي اضطربت على شفتي الشاب. وعادت إلى الغرفة وهي مغضبة.. وأغلقت الباب بعنف. ودخلت نانين بعد لحظة. فصاحت بها مرغريت:

– قولي دائما لهذا الأبله أنني لست هنا. أو أنني لا أريد مقابلته لقد تعبت أخيرا من مقابلة كل هؤلاء الناس الذين يجيئونني دائما لذات الغرض.. والذين يعطونني مالا ثم يعتقدون أننا سواسية.لو عرفت مثيلاتنا هذه الحرفة المخجلة المهينة على حقيقتها، لآثرن الخدمة على احترافها.. لكن لا.. إن الغرور.. والخيلاء.. وحب الثياب.. والمركبات والمجوهرات.. كل ذلك يجتذبنا إلى قرار الهاوية.. وفي سبيلها نذيب بالتدريج قلوبنا.. وأجسادنا.. وجمالنا.. ونحن مع ذلك مرهوبات كالوحوش الضارية. ومحتقرات كالمنبوذين.. وأولئك الذين يحيطون بنا إنما يريدون منا أكثر مما يعطون. وسيبقى هذا حالنا حتى نهلك في أحد الأيام كما تهلك الكلاب.. بعد أن نكون قد جلبنا الخراب على الغير وعلى أنفسنا.

فقالت نانين:

– رفهي عن نفسك يا سيدتي.. إنك مضطربة الأعصاب هذا المساء..

فصاحت مرغريت. وهي تجذب ثوبها بعنف:

– هذه الثياب تضايقني.. أعطيني دثارا.. ولكن أين برودنس؟

– إنها لم تعد بعد يا سيدتي.. ولكنها ستقابلك بمجرد عودتها.

فقالت مرغريت وهي تخلع ثوبها:

– ها هي مخلوقة أخرى تعرف كيف تقابلني متى احتاجت إلى معونتي ولكنها لا تقدم لي إحدى الخدمات حتى تمزق أعصابي؟

إنها تعلم أنني أنتظر الرد الليلة وإنني في أشد القلق.. ولكنها ذهبت لبعض شأنها دون أن يهمها أمري.

– ربما عوقها عائق.

فلم تجب وإنما صاحت:

– أريد بعض النبيذ.

فأجابت نانين:

– إنه يزيد مرضك يا سيدتي.

– ذلك أفضل.. وأريد كذلك جناح دجاجة وبعض النبيذ.. وفقط أسرعي.. فإنني جائعة.

ومن تحصيل الحاصل طبعا أن أصف تأثير هذا المنظر في نفسي.

قالت لي:

– إنك ستتناول طعام العشاء معي.. فاقرأ في أحد الكتب ريثما أذهب إلى غرفة ثيابي.

وأضاءت الشموع.. وفتحت بابا بالقرب من فراشها. واختفت.أما أنا.. فقد ذهبت أفكر في الحياة التي تحياها هذه الفتاة المسكينة. وامتزج

حبي لها بالاشفاق عليها. وكنت لا أزال بمفردي في الغرفة.. حين دخلت برودنس. وهتفت:

– أنت هنا؟ وأين مرغريت؟!

– إنها في غرفة الثياب.

– سأنتظرها إذن.. ولكن هل تعلم أنك أصبت هوى من نفسها؟

– كلا..

– ألم تذكر لك شيئا بهذا المعنى؟!

– كلا..

– ماذا جاء بك إلى هنا؟

– إني جئت لزيارتها.

– في منتصف الليل!

– ولم لا.. ومع ذلك فإنها استقبلتني أسوأ استقبال.

– إنها ستحسن استقبالك في الحال.

– أتظنين ذلك؟..

– إنني أحمل إليها نبأ سارا

– هذا حسن.. إذن فإنها حدثتك عني؟

– نعم.. بعد انصرافك أمس مع صاحبك.. وبهذه المناسبة.. كيف حال صديقك.. إنه يدعي جاستون.. أليس كذلك؟

– نعم.

ولم أتمالك من الابتسام.. عندما تذكرت الحديث الذي أسره إلى جاستون بالأمس.. ورأيت أن برودنس لا تكاد تعرف اسمه.

قالت:

– إنه شاب ظريف.. فما مهنته؟

– إنه لا يؤدي عملا على الاطلاق.. وإيراده السنوي خمسة وعشرون ألفا من الفرنكات.

– آه.. أحقا تقول؟ ولكن لنتحدث عنك أنت.. لقد ألقت علي مرغريت عشرات الأسئلة.أرادت أن تعرف من أنت؟ وما عملك؟ وكيف تقضي وقتك؟ ومن هن عشيقاتك السابقات؟ وبالاختصار. كل ما يهم المرأة معرفته عن شاب في مثل سنك. فحدثتها بكل ما أعرف. وأضفت إلى ذلك أنك شاب ظريف..

– شكرا لك.. والآن أنبئيني.. ما هي المهمة التي كلفتك بها أمس؟

– إنها لم تكلفني أمس بأية مهمة.. اللهم إلا العمل على التخلص من الكونت.. بيد أنها كلفتني اليوم بمهمة أخرى.. وهي تنتظر الآن نتيجتها.

وفي هذه اللحظة أقبلت مرغريت.. وقد زينت شعرها الجميل بأشرطة حريرية صفراء. وما إن وقع بصرها على برودنس حتى هتفت:

– هل قابلت الدوق؟ وماذا قال لك؟

– إنه أعطاني..

– كم أعطاك؟

– ستة آلاف.

– هل جئت بها؟

– نعم

– هل بدا عليه شئ من دلائل الضجر والسأم؟

– كلا

– مسكين هذا الرجل!

وقد نطقت بهذه الكلمات الأخيرة بلهجة يتعذر فهم مغزاها. ثم تناولت من برودنس ست أوراق مالية واستطردت:

– لقد جاء هذا المبلغ في الوقت المناسب.. فهل أنت بحاجة إلى شئ من النقود يا عزيزتي برودنس؟

– أنت تعلمين يا بنيتي.. إن غدا هو اليوم الخامس عشر من الشهر وإنه يتعين على سداد طائفة من الديون.. فإذا أقرضتني ثلثمائة أو أربعمائة فرنك فإنك تسدين إلي يدا لا أنساها.

– حسنا.. ارسلي غدا صباحا في طلب هذا المبلغ، لأن من المتعذر الآن استبدال إحدى هذه الأوراق المالية.

– لا تنسي

– كوني مطمئنة.. هل تتناولين طعام العشاء معنا؟

– كلا.. إن شارل ينتظرني في منزلي.

– ألا زلت مولعة به؟!

– إلى حد الجنون يا عزيزتي.. إلى اللقاء غدا إذن.. إلى اللقاء يا أرمان..

وانصرفت.. وفتحت مرغريت أحد الادراج.. وألقت فيه الأوراق المالية.

ثم قالت وهي تبتسم وتشير نحو فراش:

– هل تسمح لي أن أتمدد في الفراش؟

– إنني لا أسمح فقط.. بل وأرجوك..

والآن.. تعال واجلس على حافة الفراش ولنتحدث.

أصابت برودنس، فإن الرد الذي تسلمته مرغريت أعاد إليها هدوءها وجذلها.قالت وهي تتناول يدي:

– هل تغفر لي ما بدا من ضجري وضيق صدري هذا المساء؟

– إنني على استعداد لأن أغفر لك أكثر من ذلك.

– وهل تحبني؟

– حب جنون.

– رغم سوء خلقي؟

– رغم كل شئ.

– هل تقسم؟

فأجبت بصوت خافت: نعم

وعندئذ أقبلت نانين تحمل صحاف الطعام. وزجاجة من النبيذ وبعض الفاكهة.

قالت مرغريت:

– ضعي الطعام على المائدة الصغيرة، وقربيها من الفراش. إنني أتعبتك بالسهر الطويل في الليالي الثلاث الماضية. فاذهبي الآن إلى فراشك. فلست بحاجة إليك..

– هل يجب أن أقفل الباب الخارجي؟

– أظن ذلك.. ولا أريد أن يدخل غرفتي أحد قبل ظهر الغد.

الفصل الثاني عشر

في الصباح الباكر، عندما لاح ضوء النهار من خلال الستائر.. قالت لي مرغريت هامسة:

– معذرة إذا طلبت إليك الانصراف الآن.. ولكن لا مفر من ذلك.. فالدوق يأتي لزيارتي كل صباح.. وستقول له وصيفتي أنني نائمة.. ولكن يحتمل أن يبقى ريثما أستيقظ فتناولت رأسها الجميل بين يدي.. وأودعت شفتيها قبلة، أخيرة، وسألتها:

– ومتى أراك مرة أخرى؟

فأجابت:

– اصغ إلي.. خذ المفتاح الصغير الذي تجده على حافة الموقد.. وافتح به الباب، ثم أعده إلى مكانه.. واذهب في سبيلك.. وستصلك في خلال النهار رسالة تتضمن أوامري.. فأنت تعلم إنه ليس لك إلا أن تطيعني طاعة عمياء.

– أعلم ذلك.. ولكن هبي إنني أريد بدوري أن أسألك أمرا..

– ما هو؟

– هو أن تسمحي لي بالاحتفاظ بهذا المفتاح..

– إنني لم أسمح بذلك قط لأي انسان..

– لا بأس.. فاسمحي لي به.. فإن أحدا لم يحبك قط كما أحبك..

– حسنا.. خذه إذن. ولكني أصارحك بأن فائدة هذا المفتاح وعدمها، متعلقة بارادتي..

– وكيف ذلك؟

– إن للباب مزاليج داخلية..

– ما أقسى قلبك؟

– ولكني سآمر بإزالتها..

– إذن فأنت تحبينني بعض الحب؟

– لا أستطيع أن أفهم شعوري.. ولكني أظن أني أحبك.. والآن، إليك عني، فإنني في أشد الحاجة إلى النوم..

فضممتها إلى صدري.. ثم ودعتها وانصرفت..

وكانت الشوارع مقفرة، والمدينة العظيمة لا تزال هاجعة، فمشيت مرفوع الرأس، كمن يريد أن يبلغ الجبال طولا.. وأخذت استرجع في ذهني أسماء أولئك الذين كنت فيما مضى أغبطهم، فلم أجد بينهم واحدا أسعد مني..

واستغرقت في نوم عميق.. واستيقظت عندما حمل إلى الخادم رسالة من مرغريت تقول فيها: "هذا المساء، في مسرح الفودفيل بعد الفصل الثالث"..

فوضعت هذه الرسالة تحت وسادتي، لألمسها بيدي كلما توهمت – كما حدث مرارا – إنني في حلم لا في يقظة.

ولم تطلب إلي مرغريت أن أقابلها نهارا.. ولم أجرؤ على الذهاب إلى بيتها ولكني شعرت برغبة شديدة في أن أراها قبل المساء. ولم أجد وسيلة أفضل من الانطلاق إلى حديقة الشانزلزيه. حيث اعتادت أن تذهب بمركبتها كل يوم.

وقد رأيتها هناك، ولكني حرصت على ألا أدعها تراني.

وفي الساعة السابعة، قصدت إلى مسرح (الفودفيل) ولم يحدث قط قبل ذلك أنني دخلت مسرحا في مثل هذه الساعة المبكرة..

وأخذت الشرفات تمتلئ بالتدريج، ولم تبق إلا شرفة واحدة خاليلة فلم أحول بصري عنها.وما بدأ الفصل الثالث، حتى فتح باب هذه الشرفة. ودخلت مرغريت..كان أول ما فعلته، إنها أجالت البصر في جوانب المسرح حتى أبصرت بي فشكرتني بنظرة..كانت ساحرة الجمال في ذلك المساء..فترى هل كنت أنا سبب هذه الفتنة..؟

وهل هي تحبني بحيث تعتقد بأنه كلما زادت فتنتها.. تضاعفت سعادتي..؟

لا أعلم.. ولكن لو كان ذلك غرضها.. فإنها نجحت إلى أبعد حدود النجاح، لأنها ما كادت تتربع في مكانها، حتى تحولت إليها الأبصار.. وتهامس النظارة، ولم يتمالك الممثلون من التحديق نحو الغانية الفاتنة التي حولت عنهم ابصار المتفرجين..

وقد كان في جيبي مفتاح بيت هذه الغانية.. وبعد ثلاث أو أربع ساعات ستصبح لي مرة أخرى.. فهل يوجد في ذلك المسرح، بل هل يوجد في العالم كله أسعد مني؟

إننا تعودنا أن ننحي باللائمة على الشباب الذين يجلبون على أنفسهم الخراب والدمار من أجل الغانيات ونساء المسارح.. ولكن ما يدهشني هو أن أولئك الشباب لا يقدمون على المزيد من الحماقات من أجل أولئك النساء.. وإنه ليتعين عليك أن تعشق إحدى الغانيات لكي تعلم كيف تساعد عبارات الاعجاب والاطراء التي يحتكرها الناس لأولئك النساء على تمكين حبهن من قلوب عشاقهن؟

ودخلت المقصورة في أثر مرغريت امرأة عرفت فيها برودنس.. ورجل غرفت فيه الكونت دي "ج" الذي رأيت صورته في بيت مرغريت والذي قالت برودنس أن صاحبتي تدين له بالمكانة التي تتبوأها..وما كدت أرى هذا الرجل.. حتى غشيت قلبي برودة.. شلته عن الحركة..

ولا شك أن مرغريت لاحظت الانقلاب الذي طرأ على سحنتي بسبب وجود هذا الرجل، لأنها ابتسمت لي مرة أخرى. ثم تحولت عن الكونت وتظاهرت بالاهتمام بالمسرحية التي تمثل..

وعند نهاية الفصل الثالث نظرت مرغريت إلى الكونت.. وقالت له كلمتين.. فنهض الرجل، وغادر المقصورة، وعندئذ دعتني مرغريت إلى مقصورتها بايماءة من رأسها.

قالت لي وهي تبسط إلى يدها:

– طاب مساؤك..

فأجبت أحييها وأحيي صديقتها معا:

– طاب مساؤكما..

قالت:

– اجلس..

فأجبت:

– هل أحتل مقعد رجل آخر؟ إن الكونت دي "ج" سيعود بغير شك..

– نعم.. إنني طلبت إليه أن يأتيني ببعض الحلوى، لكي يخلو لنا الجو فنتحدث لحظة.. إنني أثق في برودنس.. واطمئن إلى كتمانها..

فقالت برودنس:

– نعم.. نعم.. كونا مطمئنين.. فلن أبوح بكلمة.

فقالت مرغريت وهي تقترب بمقعدها مني:

– ماذا دهاك هذا المساء..

– إنني لست في خير حال.

فقالت ساخرة:

– إذن يجب أن تلزم الفراش.

– أين..؟

– في منزلك..

– أنت تعلمين جيدا.. إن النوم لن يجد سبيلا إلى جفني هناك..

– إذن لا يجب أن تتجهم لنا.. لغير ما سبب إلا أنك رأيت رجلا في مقصورتي..

– ليس هذا هو السبب..

سألت:

– إنه السبب.. وأنا واثقة من ذلك.. ولكنك مخطئ، فلنترك الحديث في هذا الآن.. ومتى انصرفنا من المسرح، فاذهب إلى بيت برودنس وانتظر هناك حتى أدعوك.هل سمعت؟

- نعم..

وهل كان في استطاعتي إلا أن اطيع..

- ألا زلت تحبني..؟

- هل تسأليني..؟

- وهل فكرت في؟

- كل النهار..

- هل تعلم أنني أصبحت حقا أخشى الوقوع في شرك غرامك.. سل بردونس فتنبئك..

فهتفت برودنس:

- آه.. نعم.. هذا صحيح..

قالت مرغريت:

-اذهب الآن إلى مقعدك.. فقد أوشك الكونت أن يعود، وليس من الضروري أن يجدك هنا..

- لماذا..؟!

- لأنك تتألم إذا قابلته..

- كلا.. لو قلت لي فقط إنك تريدين الحضور إلى مسرح الفودفيل لاحتجزت لك هذه المقصورة عوضا عنه..

– أيها التعس.. إنه احتجز لي هذه المقصورة دون أن أطلب إليه ذلك.. ثم توسل إلي أن أرافقه.. فلم أستطع رفض توسلاته.. وكل ما استطعته. إني كتبت إليك أنبئك بمكاني.. ليتسنى لك أن تراني ثم لأنه طاب لي أن أراك قبل الموعد المتفق عليه بيننا..ولكن ما دمت قد شكرتني بهذا التجهم وهذا العبوس.. فإنني سأفيد من هذا الدرس مستقبلا..

– إنني أخطأت فاغفري لي..

– هذا خير ما قلت.. والآن، عد إلى مقعدك ناعم البال. وحذار أن تغار..

وانصرفت من مقصورتها وصادفت الكونت وهو في طريقه إليها..

وبعد.. فقد كان وجود الكونت في مقصورتها أمرا طبيعيا

إنه كان عشيقها في أحد الأيام. وقد احتجز مقصورة في ذلك المسرح. وطلب إليها أن ترافقه.. فرافقته، فهل في ذلك غرابة..؟

وما دمت أريد هذه الفتاة خليلة لي.. أفلا يجب أن أقبل عاداتها وطبائعها..؟!

ومع ذلك فإنني كنت شديد التعاسة في ذلك المساء.. وتضاعفت تعاستي عندما رأيت مرغريت وبرودنس تنصرفان مع الكونت في مركبته.. ولم تنقض ربع ساعة، حتى كنت في بيت برودنس.. وكانت قد وصلت إليه لتوها.

الفصل الثالث عشر

قالت لي برودنس:

– إنك جئت بمثل سرعتنا..

فأجبت بلهجة آلية:

– نعم.. فأين مرغريت..؟

– إنها في بيتها..

– وحدها..؟

– كلا.. إنها مع الكونت دي ج..

فأخذت أسير في الغرفة جيئة وذهابا..

سألتني:

– ماذا بك..؟

– ماذا بي؟ هل تحسبين أنني أجد متعة في الانتظار هنا حتى ينصرف الكونت من حضرة مرغريت..؟

فأجابت:

– إنك تخطئ سبل الصواب والتفكير السليم يا صديقي.. يجب أن تفهم أن مرغريت لا تستطيع أن تطرد الكونت. فهو عشيقها منذ زمن طويل.. وقد أعطاها وما زال يعطيها مبالغ طائلة..إن مرغريت تنفق مائة ألف فرنك في العام.. وهي بعد ذلك مثقلة بالديون..والدوق يعطيها كل ما تطلب، ولكنها لا تجسر على تحميله كل نفقاتها وتحتفظ بالكونت الذي يمدها ببضعة آلاف من الفرنكات شهريا..

إن مرغريت تحبك.. ولكن لخيرك وخيرها على السواء.. ألا تتخذ الصلة بينكما صبغة جدية.. لأنك لا تستطيع بايرادك الذي لا يتجاوز سبعة أو ثمانية آلاف فرنك أن ترضى اسراف هذه الفتاة.. بل ان ايرادك كله لا يكاد يكفي نفقات مركبتها.. لذلك يحسن بك أن تقبل مرغريت كما هي.. وإلا ترى فيها إلا أنها فتاة طيبة ذكية حسناء..

كن عشيقها شهرا أو شهرين.. واحمل إليها الحلوى وباقات الزهر، ولكن لا تضع في ذهنك شيئا من الأوهام والحماقات. وتجنب ازعاجها بغيرتك..

أنت تعرف مرغريت حق المعرفة.. وتعلم جيدا أنها لا ترضى أن يسيطر عليها أحد.. وهي معجبة بك.. وأنت شغوف بها.. فاقنع بذلك.. ولا تزعج نفسك بغيره.إنك تنعم بأجمل غانية في باريس. وهي تستقبلك في مخدعها الفخم.. ولا تكلفك سنتيما واحدا.. فكيف لا تقنع بكل هذا؟

– إنك على حق.. ولكني أتألم أشد الألم لمجرد التفكير في خلوتها الآن.. مع هذا الرجل الذي كان عشيقها في أحد الأيام..هل هو لا يزال عشيقها؟

– إنه رجل تشعر بحاجتها إليه. فلم تجسر على رفض دعوته عندما دعاها لمرافقته إلى المسرح.. وقد عاد معها إلى بيتها.. ولكنها لن تسمح له بالبقاء معها.. لسبب واحد على الأقل، هو وجودك هنا.

–بيد أنني أعجب لك.. كيف تنقم على صلة مرغريت بهذا الكونت وتنقم على صلتها بالدوق..

– إن الدوق رجل متقدم في السن. وأنا واثق أن مرغريت ليست عشيقته..وفضلا عن ذلك. فإن الإنسان قد يغض الطرف عن صلة واحدة. ولكنه لا يتجاوز عن صلتين. فسهولة التجاوز عن هذه الصلات – ولو بدافع الحب – تنزل الإنسان إلى الدرك الذي يتخبط فيه المتجرون بالأعراض.

– إنك من الطراز القديم يا صديقي العزيز. فكم من النبلاء والأغنياء والمبرزين في الهيئة الاجتماعية من يفعل بغير تردد أو شعور بالخجل ووخز الضمير ما أنصح لك الآن بأن تفعله؟ وهل تعتقد أن في استطاعة غانية من غانيات باريس المعروفات أن تحتفظ بمظاهر الأبهة والرفاهة ما لم تتخذ ثلاثة أو أربعة من العشاق في وقت واحد؟ إن الرجل

مهما كان واسع الغنى فإنه يعجز عن إجابة فتاة مثل مرغريت إلى كل مطالبها.

فالرجل يكون واسع الغنى في باريس. إذا بلغ ايراده خمسمائة ألف من الفرنكات. ولكن هذا الايراد على ضخامته لا يكاد يكفي لإرضاء فتاة كمرغريت. وإليك السبب.. يتعين على صاحب مثل هذا الايراد أن يكون له قصر وخدم وحشم واصدقاء. ومركبات.. وجياد. وكلاب الصيد.. ويتعين عليه أن يقامر ويكثر من السياحة والسفر شأن أمثاله وكل هذه تقاليد مقررة. لا يستطيع أن يتجاوز عن إحداها دون أن يثير الشكوك في متانة مركزه المالي. فإذا عرفنا ما تقتضيه هذه التقاليد من نفقات. وجدنا أنه لا يستطيع أن يهب عشيقته أكثر من أربعين أو خمسين ألفا من الفرنكات في العام فماذا تستطيع الغانية المبرزة أن تصنع بهذا المبلغ؟ إنها تستعين حتما بأكثر من عشيق آخر. لتتمكن من موازنة ميزانيتها. والاحتفاظ بما تعودته من مظاهر.

على أن حال مرغريت يختلف عن حال غيرها. وقد كان من حسن حظها أنها صادقت ذلك الدوق الشيخ، وهو رجل واسع الغنى، فقد زوجته وابنته. ولم يبق إلا بعض الأقرباء. وكلهم أغنياء مثله. فهو لا يرزح تحت ثقل من الالتزامات كما يرزح سواه. وفي استطاعته أن يجيب مرغريت إلى ما تطلب. دون أن يسألها شيئا.

ولكن مرغريت لا تطالبه بأكثر من ستين أو سبعين ألف فرنك في العام. وأنا واثقة من أنها إذا طلبت المزيد. فإن الشيخ – رغم غناه وعطفه عليها – فهو يرفض طلبها.

وجميع الشباب الذين يتراوح ايرادهم بين ٢٠ و ٣٠ ألف فرنك – وهو مبلغ لا يكاد يكفي نفقاتهم الشخصية في الوسط الذي يعيشون فيه.. والأماكن التي يختلفون عليها – جميع هؤلاء الشباب يعلمون – متى أصبحوا عشاقا مثل مرغريت أن كل ايرادهم لا يكفي ايجارا لبيتها، ولكنهم لا يقولون لها أنهم يعلمون ذلك. بل يتظاهرون بأنهم لا يرون شيئا. حتى إذا نالوا بغيتهم. وطابوا نفسا. انطلقوا لشأنهم. وتركوها لشأنها. أما من دفعه الغرور منهم إلى الاضطلاع بالمسئولية كلها فإنه ينتهي حتما إلى الافلاس ثم إلى الفرار أو الانتحار. بعد أن يترك وراءه عبئا ثقيلا من الديون.ولا يكون ذلك قد استحق عطف الغانية أو استوجب شكرها.. بل على العكس.. ستقول الغانية أنها ضحت بمركزها من أجله.. وأنها فقدت في معاشرته كثيرا من المال

ولاشك أنك ستجد هذه التفصيلات مهينة لك.. مذلة لكبريائك ولكنها تعبر عن الحقيقة والواقع.. فقد قضيت عاما مع هذا الطراز من الفتيات.. حتى عرفت قيمتهن. والرأي عندي ألا تقيم كبير وزن لعواطفهن.

ولكن لنفرض أن حبك تمكن من قلب مرغريت وأن الدوق والكونت لاحظا الصلة بينكما.. وخيرا لها.. فاختارتك من دونهما فماذا يكون بعد ذلك؟.. ومتى نلت منها بغيتك ومللتها. فكيف تعوضها عما فقدت لأجلك وبسببك؟

إنك لا تملك وسيلة لتعويضها.. وتكون فقط قد عزلتها عن العالم الذي تعيش فيه.. وفيه وحده مستقبلها.. وثروتها

وتكون هي بدورها قد ضيعت معك أثمن سني حياتها.. وقطعت الصلة بينها وبين أصدقائها وعشاقها السابقين.

وعندئذ تصبح أنت أحد رجلين.. أما رجلا من الطراز العادي فترميها بآثامها وأوزارها.. وتقول لها إنك لا تستطيع أن تفعل من أجلها ما فعله غيرك من عشاقها.. ثم تتركها في شقوتها وبؤسها وتذهب في سبيلك.. وإما أن تكون رجلا شريفا كريم النفس طيب الخلق.. وترى أن من حقها أن تبقيها عندك.. فترضخ لهذه الكارثة مرغما.. وتشعر دائما بأنها قذى في عينيك. وشوكة في حلقك وعقبة كأداء في سبيل مستقبلك ومطامعك.. وسعادتك العائلية فاعمل بنصيحتي إذن أيها الصديق. وخذ الأشياء بقيمتها الحقيقية والمرأة بقيمتها السطحية.. ولا تمنح فتاة من طراز مرغريت الحق في أن تعتبر نفسها دائنة لك بحال.

لم أجد ما أقوله ردا على هذا التدليل المنطقي المعقول الذي أدهشني صدوره عن امرأة كبرودنس. ولم يسعني إلا الاعتراف لها بالوفاء وبعد النظر. فشددت على يدها. وشكرت لها نصيحتها الثمينة.

قالت:

– رفه عنك إذن. واطرد الأوهام الحالكة التي تحتل ذهنك واضحك.. فإن الحياة ممتعة يا صديقي وإن اختلفت ألوانها. باختلاف المنظار الذي تراها به.سل صديقك جاستون.. فإنه يفهم معنى الحب كما أفهمه وبحسبك أن تشعر الآن – اللهم إلا إذا كنت جامد العاطفة – بأن على مقربة منا فتاة حسناء. تفكر فيك. وتحبك.. وتنتظر انصراف زائرها بفارغ الصبر لكي تشركك في فراشها.. وتقضي معك ليلتها. والآن.. تعال معي إلى النافذة لنرقب انصراف الكونت.

قالت ذلك وفتحت النافذة.. وراحت تنظر إلى المارة.

أما أنا فذهبت أحلم. وأفكر.

كان كلامها لا يزال يطن في أذني. ولم يسعني إلا الاعتراف بأنه عين الحق والحكمة، ولكن كيف يستقيم هذا الكلام مع الشعور القوي الذي أكنه لمرغريت. وأفلتت من بين شفتي على الرغم مني آهة عميقة. جعلت برودنس تنظر إلي. ثم تهز كتفيها. كما يفعل الطبيب إذا يئس من مريضه.

قلت لنفسي:

– لشد ما يشعر الإنسان بقصر الحياة من هذه الانفعالات السريعة التي تأخذ برقاب بعضها بعضا في أقصر وقت.. إنني لم أعرف مرغريت إلا منذ يومين. ول تصبح عشيقتي إلا منذ يوم. ولكنها احتلت من قلبي وتفكيري وحياتي مكانة جعلتني أرى في زيارة الكونت دي "ج". كارثة شخصية دونها كل الكوارث.

وانصرف الكونت أخيرا، وأطلت مرغريت من نافذتها ودعتنا إليها. وما كدت أدخل حتى أحاطت عنقي بساعديها وضمتني إلى صدرها بحرارة.

سألتني:

– ألا زلت متجهما؟

فقالت برودنس:

– كلا.. لقد زال تجهمه، فإنني ألقيت عليه محاضرة قيمة وعد على أثرها بأن يغير سلوكه.

– هذا من حسن الحظ.

وجلسنا إلى مائدة الطعام. وكانت مرغريت مثال الفتنة والحيوية ودماثة الخلق. فقلت لنفسي ماذا أريد منها غير ذلك. أو أكثر من ذلك؟ وحاولت أن أضع نظريات برودنس موضع التنفيذ. وأن أكون مرحا طروبا كزميلتي. فكان مرحى مفتعلا. وكانت ضحكاتي أقرب إلى البكاء. ورفعت

المائدة.. وبقيت وحدي مع مرغريت. وجلست مرغريت على سجادة ثمينة أمام الموقد، وراحت تنظر إلى النيران في حزن وأسى.

كانت تفكر.. ولكن فيم؟

قالت لي فجأة:

– تعال.. واجلس بجانبي.

فأطعت.

قالت:

– هل تعلم فيما أفكر؟

– كلا.

– إنني أفكر في خطة خطرت لي

– وما هي هذه الخطة؟

– لا أستطيع أن أحدثك بها الآن.. ولكني أذكر لك نتيجتها المنتظرة.

سيترتب على هذه الخطة.. أن أصبح بعد شهر حرة طليقة ولا دين علي لأحد. فنذهب معا لقضاء الصيف في الضواحي.

– ألا تحدثيني بمضمون هذه الخطة؟

– كلا.. ولكن يجب فقط أن تحبني كما أحبك. فيسير كل شئ في مجراه الطبيعي وتنجح خطتي.

– هل دبرت هذه الخطة بنفسك؟

– نعم..

– وفي نيتك تنفيذها بمفردك؟

فأجابت وعلى شفتيها ابتسامة:

– سأحتكر متاعبها لنفسي، ولكننا سنقتسم فوائدها.

فاحمر وجهي عندما سمعت كلمة (فوائدها) لأنها ذكرتني كيف كانت مانون ليسكو تبعثر مع عشيقها أموال الشيخ النبيل الذي وقع في حبائلها.

قلت بحدة.. وأنا أنهض واقفا:

– اسمحي لي يا عزيزتي مرغريت بأن أنفض يدي من (فوائد) أية خطة.. لا أقوم بنفسي على تدبيرها وانفاذها.

– ما معنى هذا؟

– معنى هذا أنني أرتاب بقوة في أن للكونت دي ج. ضلعا في الخطة السعيدة التي تتكلمين عنها والتي لا أقبل مسئوليتها أو فوائدها.

– أنت طفل كبير. لقد حسبت أنك تحبني، ولكني كنت واهمة.

ثم نهضت إلى البيانو وراحت تعزف الانشودة التي عزفتها وترنمت بها ليلة أن عزفتها لأول مرة. ولا أعلم هل عزفتها بشغفها بها.. أو لأنها أرادت أن تذكرني بتلك الليلة؟ وكل ما أعلمه إن مع هذه الانشودة عاودتني الذكريات. فدنوت منها وأمسكت برأسها بين يدي. وقبلت جبينها.

سألتها: هل تصفحين عني؟

فأجابت:

– أنت ترى أنني صفحت. ولكني أرجو أن تلاحظ بأننا مازلنا في يومنا الثاني فقط. ومع ذلك فهناك ما يستوجب صفحي.. إنك لا تقيم كبير وزن لوعودك لي بالطاعة العمياء.

– ماذا تنتظرين مني يا مرغريت؟ إنني أحبك كثيرا.. وأغار من مجرد الخواطر التي تطوف بذهنك.

وهذا الاقتراح الذي عرضته علي في التو واللحظة قد جعلني أطير فرحا. ولكن السر الذي يحيط بالخطة التي تؤدي إليه أحزنني. وهمني. أثار شكوكي وريبي.

فأمسكت بكلتا يدي. وقالت وعلى شفتيها تلك الابتسامة الخلابة التي لا تقاوم:

– دعنا نتفاهم.. أنت تحبني.. أليس كذلك؟ وتكون سعيدا إذا خلوت بي شهرين أو ثلاثة في الضواحي؟ أنا كذلك أكون سعيدة بهذه الخلوة المزدوجة. ليس فقط لأنني أجد فيها المتعة والهناء. وإنما كذلك لأنها ضرورية لصحتي، ولكني لا أستطيع أن أغيب عن باريس مثل هذه المدة الكبيرة. دون أن أرتب شئوني، وشئون مخلوقة من طرازي تكون عادة شديدة الاضطراب والارتباك. غير أنني اكتشفت وسيلة التوفيق بين شئوني وحبي لك.. نعم. حبي لك فلا تضحك، فقد بلغ من جنوني أنني أحببتك. ومع ذلك فإنك تشمخ بأنفك. وتكيل لي الكلام جزافا. أيها الطفل.. أيها الطفل الكبير.. تذكر فقط أنني أحبك ولا تزعج نفسك بشئ آخر. هل اتفقنا؟ أجب.

– أنت تعلمين أنني أوافق على كل ما يرضيك. وإن لا إرادة لي غير إرادتك.

– حسنا.. إذن بعد شهر نكون في إحدى القرى، حيث نمشي على حافة الغدير. ونشرب اللبن، وقد يبدو غريبا أن ترضى مرغريت جوتييه بالحياة على أبسط ألوانها.. ولكن هذه الحياة الباريسية التي يخيل للذين يعرفونني أنها تدخل السرور على نفسي. هذه الحياة تتعبني وتضنيني، حينما لا تحرقني. ثم أنني قد ملكتني فجأة رغبة شديدة في حياة هادئة تذكرني بحياة الطفولة.

كل إنسان قد عزف هدوء الطفولة مهما تكن الحياة التي عاشها بعد ذلك. ولكن لا تنزعج. فليس في نيتي أن أقول لك أنني كنت من أسعد الأطفال، أو أنني ابنة ضابط كبير متقاعد. وقد تلقيت علومي في كلية (سان دينيس) حيث تتعلم بنات النبلاء والأغنياء.

كلا.. كلا.. فما أنا إلا فتاة ريفية فقيرة.. ومنذ ستة أعوام لم أكن أعرف كيف أكتب اسمي. فهل اطمأننت الآن؟ ولعلك تعجب. لماذا وقع اختياري عليك دون سائر الرجال لكي تشاطرني متعة الحياة الهادئة التي أصبو إليها.. فهل تعلم لماذا؟ لأنني شعرت بأنك تحبني لشخصي حبا خاليا من أدران الانانية.. بينما غيرك من الرجال قد أحبوني فقط إرضاء لشهواتهم. وإشباعا لغرورهم ولذائذهم.

إنني ذهبت إلى الأرياف مرارا.. ولكن لا كما كنت أحب أن أذهب.. وأنا الآن اعتمد عليك للحصول على السعادة التي أتطلع إليها. فلا تكن سئ الطبع.. وامنحني هذه النعمة.. وقل لنفسك "إنها سوف لا تعيش حتى تبلغ مبلغ الكهولة.. وأنا سوف لا أندم في أحد الأيام أنني لم أجبها إلى أول مطلب لها.. وهو على كل حال مطلب سهل ميسور".

بماذا كان في استطاعتي أن أجيب على لهجة كهذه؟ بينما ذكرى ليلتنا الأولى لا تزال تحتل ذهني.. وبينما أنا في انتظار الليلة الثانية؟

وبعد ساعة أخرى.. كانت مرغريت بين ذراعي.. ولو سألتني حينئذ أن أرتكب جريمة لأطعتها.

وافترقنا في الساعة السادسة صباحا. وقلت لها قبل أن أنصرف.

– إلى اللقاء في هذا المساء.

فقبلتني بلطف. ولكنها لم تجب.

وحول الظهر. جاءتني منها هذه الرسالة:

"صديقي العزيز:

إنني مريضة. والطبيب يأمرني بالراحة. وسألوذ بفراشي في ساعة مبكرة. فلن أراك الليلة. ولكني أعوضك بأن أنتظرك ظهر غد.. إنني أحبك"

قرأت هذه الرسالة وقلت لنفسي في الحال: إنها تخونني.

وتصبب العرق البارد على جبيني. فقد كنت أحب هذه المرأة حبا يجعل من مثل هذه الريبة جحيما. ومع ذلك فإنه كان يجب علي أن أتوقع هذه الخيانة يوميا من امرأة كمرغريت. وقد خانتني قبلها كثيرات من عشيقاتي فلم أقم لخيانتهن وزنا، فما السر إذن في سلطان هذه المرأة علي؟

وخطر لي أن أذهب إلى بيتها كالمعتاد. ما دمت أملك مفتاحه وهكذا أقطع الشك باليقين بأسرع ما يمكن. وإذا وجدت عندها رجلا فإنني أهينه.

وذهبت إلى الشانزلزيه وقضيت هناك أربع ساعات. ولكني لم أرها.

وفي المساء.. ترددت على جميع المسارح التي اعتادت مرغريت أن تغشاها، ولكني لم أجد لها أثرا.

وحول الساعة الحادية عشرة. ذهبت إلى شارع دانتان. ولم أجد نورافي نوافذ مرغريت. ومع ذلك فإنني قرعت الجرس وسألني البواب عما أطلب. فأجبته:

– إنني جئت لزيارة الآنسة مرغريت جوتييه

قال:

– إنها لم تعد بعد.

– إذن سأنتظرها في شقتها.

– لا يوجد أحد في الشقة.

لم يكن ثمة شك في أن مرغريت أمرت بألا يزورها أحد. ولكن كان في استطاعتي أن أخرق أوامرها. لأن مفتاح شقتها جيبي.

بيد أنني أشفقت أن أثير فضيحة مضحكة فانطلقت في سبيلي ولكني لم أعد إلى منزلي.. ولم أبرح شارع دانتان.. ولم أحول بصري عن بيت مرغريت.شعرت بأن هناك أشياء يجب أن أعرفها.. وشاءت الاقدار أن تحقق شكوكي. فما كاد الليل ينتصف حتى وقفت بالباب مركبة. وهبط منها رجل عرفت فيه الكونت دي ج، وأمر الكونت سائق المركبة بالانصراف ودخل البيت .. ورجوت أن يكون حظه كحظي.. وأن يقال له

أن مرغريت لم تعد بعد إلى بيتها.. وأن أراه يخرج من البيت مغضبا كئيبا كما خرجت.

ولكن الساعة دقت الرابعة صباحا وأنا لا أزال أنتظر خروجه.. كنت قد قاسيت كثيرا في الأسابيع الثلاثة الأخيرة، ولكن ما قاسيته في تلك الليلة كان يفوق طاقة البشر.

الفصل الرابع عشر

لم يوجد بعد الرجل الذي لم تخنه المرأة التي يحبها، ولا يوجد رجل إلا ويعرف الألم الذي تثيره هذه الخيانة. قلت لنفسي.. إنني يجب أن أقطع صلتي بها.. وأن أنتظر حتى تبزغ الشمس فأرحل إلى أبي وأختي حيث أستمتع بالحب الطاهر الذي لا يعرف الخيانة. ومع ذلك فإنني لم أشأ الرحيل دون أن تعرف مرغريت السبب.. رجل واحد يستطيع أن يرحل دون أن يكتب لعشيقته.. وذلك هو العاشق الذي طلق الحب ونفض غباره عن حذائه.

كنت حيال امرأة لا تختلف عن نساء طبقتها. امرأة أحللتها من نفسي فوق المكانة التي تستحقها. فعاملتني كغلام من غلمان المدارس.. ولجأت في خيانتها إلى حيلة مهينة في بساطتها وأصبح من الواجب أن أثأر لكرامتي المخدوشة. فلا أقل إذن من أن أهجرها. دون أن أترك لها سبيلا إلى معرفة السر في ألمي وعذابي. وأخيرا تناولت القلم وكتبت إليها هذه الرسالة ودموع الحزن والغضب تملأ عيني:

"عزيزتي مرغريت:

أرجو أن يكون مرضك بالأمس قد زال وزالت آثارة.. لقد ذهبت إلى بيتك في الساعة الحادية عشرة. للاستفسار عنك.. فقيل لي أنك لم

تعودي. ولكن الكونت دي. ج كان أسعد حقا، لأنه ذهب إليك بعد بضع دقائق، ودقت الساعة الرابعة صباحا وهو لا يزال عندك.

فمعذرة عن الساعات القلائل المملة التي جشمتك قضاءها معي. وشكرا على اللحظات السعيدة التي أدين لك بها.. وقد كنت أود أن أستفسر عنك اليوم. لولا أنني بسبيل التأهب للسفر إلى أبي.

فوداعا يا عزيزتي مرغريت.. إنني لست من الغنى لكي أحبك كما أريد.. ولا من الفقر لكي أحبك كما تريدين.. فلننس إذن.. إنني اسم لا يكاد يهمك.. وأنا سعادة لم تعد ممكنة.

وهأنذا أرد إليك مفتاحك الذي لم أستخدمه قط، والذي قد يفيدك كلما انتابك مرض كمرض أمس".

ولعلك تلاحظ أنني لم أستطع اتمام رسالتي. من غير سخرية.

لقد قرأت الرسالة مرارا.. وطاب لي أن أتصور أثرها المؤلم في نفس مرغريت.

وفي الساعة الثامنة.. أمرت خادمي جوزيف أن يذهب بالرسالة إليها.

فسألني:

– وهل انتظر ردا؟

فقلت له:

إذا سألتك وصيفتها عما إذا كانت الرسالة تحتاج إلى رد. فأجب بأنك لا تعرف.. وأنك ستنتظر حتى تقرأ السيدة الرسالة.

وخفق قلبي بعنف.. عندما لاح لي أمل في تسلم رد منها فما أضعفنا نحن الرجال.

وقضيت فترة غياب الخادم وأنا في أشد حالات الاضطراب تذكرت كيف أسلمتني مرغريت نفسها.. وقلت لنفسي بأي حق أكتب إليها مثل هذه الرسالة الوقحة.. بينما في استطاعتها أن تجبني. بأن الكونت دي ج.. لم يخدعني ولم يخني.. ولكنني الذي خنته وخدعته.

ثم تذكرت وعودها، وأحاديثها المعسولة، وقلت أن لهجة رسالتي إليها كانت أخف مما ينبغي.

وأخيرا سألت نفسي: ترى بماذا تجيبني؟

وشعرت بأنني على استعداد لقبول أي عذر تبرر به خيانتها وعاد الخادم، فسألته في لهفة:

– ماذا صنعت؟

أجاب:

– لقد قيل لي أن السيدة في فراشها.. وأنها لا تزال نائمة وأن الرسالة ستسلم إليها حالما تستيقظ. وإذا كان ثمة رد فسيؤتي به

لا تزال نائمة.

وخطر لي مائة مرة أن أنفذ خادمي لاسترداد الرسالة، ولكني كنت دائما أقول لنفسي:

– ربما تسلمت الرسالة فعلا، فإذا أرسلت أستردها.. كان ذلك دليلا على الندم.

وكلما مرت الساعات. زاد أسفي وندمي على أنني كتبت تلك الرسالة على الاطلاق.

ودقت الساعة العاشرة، والساعة الحادية عشرة، ثم انتصف النهار وخطر لي عندئذ أن أذهب إليها في الموعد المتفق عليه. كأنما لم يحدث شئ.وأخيرا ملكتني الحيرة ولم أعرف كيف أصنع لأخرج من الحلقة الفولاذية التي تحيط بي.

ودقت الساعة الواحدة وأنا لا أزال انتظر.

وعندئذ فكرت.. كما يفكر أولئك الذين يتعلقون بالأوهام والخرافات في أنني إذا انصرفت من المنزل. فقد أجد ردها في انتظاري عند عودتي. فإن الردود التي ينتظرها الإنسان بفروغ صبر. تصل دائما في غياب الشخص الذي ينتظرها. وهكذا انصرفت من المنزل بحجة الرغبة في تناول الطعام. ولكني لم أذهب إلى مطعم فوا حيث تعودت أن أتناول غذائي.. بل فضلت أن أذهب إلى مطعم فيري في ميدان الباليه رويال. وأن أمر في طريقي بشارع دانتان.. وكنت كلما رأيت امرأة على مبعدة خيل إلي أنني أرى (نانين) وأنها في طريقها إلى بيتي حاملة إلي رسالة من مرغريت.

ودخلت المطعم. وقدم إلى الخادم ما شاء من الطعام. ولكني لم أتناول شيئا. وعدت إلى منزلي وأنا واثق من أنني سأجد فيه رسالة من مرغريت.

ولكن خاب رجائي.

قلت وقد استودت الدنيا في عيني "لو كان في نية مرغريت أن تكتب إلي لفعلت ذلك منذ وقت طويل".

وبدأت أندم على لهجة رسالتي.

لو أنني لزمت جانب الصمت المطلق لأحزنها ذلك وأقلقها. ثم متى وجدت أنني لم أذهب إليها في الموعد المتفق عليه بيننا. فإنها لا تبطئ أن تستفسر عن سبب غيابي.. وعندئذ أقول لها ما عندي، فلا تجد أمامها إلا أن تبرر سلوكها. وما كنت أريد منها إلا أن تبرر سلوكها.. وأي عذر تلتمسه. كان جديرا بأن يقنعني فإنه أهون علي أن اقتنع بأي عذر من أن لا أراها أبدا، وحاولت أن أقنع نفسي.. بأنها ربما تأتي بنفسها للتفاهم.. أو الاعتذار. ولكن الساعات مرت. وهي لا تأتي.

لاشك أن مرغريت لم تكن كغيرها من النساء.. فإنهن قليلات جدا أولئك اللائي يتسلمن رسالة كرسالتي.. ولا يكتبن لها ردا.

وفي الساعة الخامسة.. ذهبت إلى الشانزلزيه. وفي نيتي أن أتجاهلها إذا رأيتها، لكي أشعرها بأنني لم أعد أفكر فيها.. وأنني أنتزعتها من قلبي.

ولكنني ما كدت أتجول في شارع (رويال). حتى رأيت مركبتها أمامي. كانت المقابلة فجائية. بحيث خيل إلي أن الدم غاض من وجهي. ولا أعلم هل لاحظت مرغريت ما بدا من انفعالي، لأنني في الواقع كنت من الاضطراب بحيث لم أر غير المركبة.

ولم أواصل السير إلى الشانزلزيه.. فقد كانت هناك وسيلة أخرى لمقابلة مرغريت. فجعلت أقرأ اعلانات المسارح.. حتى وجدت أن هناك مسرحية جديدة ستعرض لأول مرة في مسرح (الباليه رويال).

لم يكن ثمة شك في أن مرغريت ستذهب إلى هذا المسرح. فقصدت إلى (الباليه رويال) وأخذت أرقب الشرفات حيث امتلأت جميعا.. ولكن مرغريت لم تحضر.

غادرت (الباليه رويال) إلى (الفودفيل) و(الاوبرا كوميك) و(الفرايتيه) وغيرها من المسارح التي تختلف عليها مرغريت.

ولكن بغير جدوى.

وإذن إما أن تكون رسالتي قد آلمتها.. فصرفتها عن المسرح. وإما أنها خشيت أن تقابلني فتضطر إلى تبرير سلوكها.. وهو ما لا تريد أن تفعله..

وقد كنت أفكر في كل ذلك حين قابلني جاستون وسألني من أين أنا قادم فأجبته:

– من (الباليه رويال).

قال:

– أما أنا فقادم من (الاوبرا).. وكنت موقنا بأنني سأقابلك هناك.

– لماذا؟

– لأن مرغريت كانت هناك.

– أحقا تقول؟

– نعم..

– وهل كانت وحدها؟

– كلا.. كانت معها صديقة لها.

– فقط!

– كذلك زارها الكونت دي ج.. في مقصورتها ولكنه لم يمكث طويلا. وانصرفت مرغريت بعد ذلك بصحبة الدوق. وقد كنت أتوقع في كل لحظة أن أراك. فإن مقعدا بجانبي ظل خاليا طول الوقت فاعتقدت أنك احتجزته لنفسك.

– ولكن لماذا يتعين أن أذهب.. إلى حيث تذهب مرغريت؟

– لماذا؟ لأنك عشيقها.

– ومن قال لك ذلك؟

– برودنس.. إنني قابلتها أمس. فحدثتني بكل شئ.. والآن. دعني أهنئك أيها الصديق العزيز.. إنها في الحق خليلة فاتنة. لا ينالها كل راغب فيها.. فاحتفظ بها. واحرص عليها. فإنها تشرفك.

ولو أن جاستون قابلني في اليوم السابق وقال لي هذا الكلام.. لما كتبت بغير شك تلك الرسالة الحمقاء. وخطر لي أن أذهب لزيارة برودنس. وأن أبعث بها إلى مرغريت.. لتقول لها أنني أريد التحدث إليها. ولكني أشفقت أن تثأر مرغريت لنفسها بأن ترفض مقابلتي.

وأخيرا عدت إلى منزلي. ولكن بعد أن مررت بشارع دانتان. وسألت خادمي:

– هل من رسالة لي؟

فأجاب:

– كلا يا سيدي..

قلت لنفسي:

– لعلها انتظرت أن أسعى إلى استرداد رسالتي. وما دمت لم أفعل فلعلها تكتب إلى غدا.

ولكني ندمت في تلك الليلة على ما فرط مني كما لم أندم من قبل.وجدتني وحيدا في غرفتي. نهبا للأرق والقلق والغيرة. ولو تركت الأمور

تجري في طريقها الطبيعي لكنت الآن مع مرغريت. أصغي إلى همساتها الساحرة التي لم أسمعها غير مرتين. والتي كانت تحرق أذني في وحدتي.

وأزعجني بالأكثر. عندما فكرت في الأمر مليا أن أجد أنني المخطئ.

والواقع.. أن كل شئ كان يؤكد لي أن مرغريت تحبني. فهناك أولا. خطتها لقضاء الصيف معي في إحدى القرى. وانتفاء الأسباب والعوامل التي ترغمها على أن تصبح عشيقتي ما دامت ثروتي لا تكاد تكفي كمالياتها. فضلا عن حاجاتها الضرورية.

وإذن فإنها لم تكن ترجو مني غير الإخلاص الذي تستطيع أن تلوذ به من الحب التجاري الذي تتخبط في لجته. ولكني ضيعت عليها هذا الرجاء ولما ينقض على غرامنا يومان. وشكرتها بالتهكم والسخرية على الليلتين السعيدتين اللتين قضتهما معي..

وهذا السلوك من ناحيتي لا ينطوي على الجحود فحسب. بل ينم كذلك عن القسوة وفساد الذوق.هل نقدتها أجرا.. حتى يجوز لي أن أنحي عليها باللائمة أو أحصي عليها الحركات والسكنات؟

إنني لم أعرفها إلا منذ يومين. ولم تكن عشيقتي إلا بضع ساعات فكيف لا أقنع وأكون شاكرا وسعيدا لأنها شاطرتني بعض وقتها؟ وكيف أريدها على أن تهدم بضربة واحدة جميع العلاقات والصلات التي كانت ولا تزال مصدر ايرادها؟

وماذا فعلت حتى استحقت لومي وموجدتي؟!

إنها كتبت تقول بأنها مريضة. حين كان في استطاعتها أن تقول بالصراحة البشعة التي أعرفها في بعض النساء أنها ستستقبل أحد عشاقها.فبدلا من أن أصدقها وأقتنع بما جاء في رسالتها. وبدلا من أن أطوف بشوارع باريس جميعا إلا شارع دانتان. وبدلا من أقضي السهرة مع بعض أصدقائي. ولا أذهب للقائها إلا في اليوم التالي وفي ذات الموعد الذي اتفقنا عليه.. بدلا من أن أفعل ذلك كله أو بعضه. آثرت أن أقووم بدور عطيل. فذهبت أتجسس عليها. ثم رأيت أن أنتقم منها بالامتناع عن مقابلتها.

أما هي فلابد أن تكون سعيدة بهذا الفراق، ولابد أنها وجدتني غرا أحمق. فلزمت الصمت. لا عن رغبة في الانتقام. وإنما عن شعور بالاحتقار والازدراء.وانتفاء الأسباب والعوامل التي ترغمها على أن تصبح عشيقتي ما دامت ثروتي لا تكاد تكفي كمالياتها. فضلا عن حاجاتها الضرورية.

وفي هذه الحالة كان يتعين علي أن أعاملها كعشيقة رجل آخر.. فأقدم إليها هدية لا تترك لديها شكا في سخائي. وتكون صك المخالصة بيننا. ولكني خفت أن أجعل للعلاقة التي كانت بيننا صبغة تجارية.. إذا لم تجرح غرامها بي.. فإنها تدمي غرامي بها. وما دام هذا الحب قد كان من النقاء والطهارة.. بحيث لم يسمح بأن يكون لي فيه شريك أو شركاء.. فإن أية هدية مهما كانت ثمينة.. لا يمكن أن تكفي ثمنا للسعادة التي استمتعت

بها.. مهما كانت قصيرة.ذلك ما قلته لنفسي في تلك الليلة.. وما كنت على استعداد للذهاب إلى مرغريت في أية لحظة لأقوله لها.. وتنفس الصبح وأنا لا أزال أفكر في مرغريت.. ولا شئ سوى مرغريت.. كان من الضروري أن أتخذ قرارا حاسما وأن أقطع الصلة بيني وبين مرغريت أو بيني وبين الشعور بالشرف والكرامة لعلك تعلم كيف يتردد الإنسان.. وكيف يماطل.. قبل أن يتخذ مثل هذا القرار. ولما لم يكن في استطاعتي أن أبقى في المنزل. أو أذهب إلى مرغريت فإنني لجأت إلى وسيلة إذا نجحت أدنتني منها وإذا فشلت لم تخدش كبريائي.

ففي الساعة التاسعة.. أسرعت إلى بيت برودنس.. فرحبت بي وسألتني عن سر زيارتي المبكرة.. ولكني لم أجرؤ على مصارحتها بما جاء بي.. وأجبتها بأنني إنما أردت أن أودعها قبل سفري إلى أبي.

فقالت:

– إن من حسن حظك أن تتمكن من الاستمتاع بجو الريف في هذا الفصل البديع.

فنظرت إليها بحدة.. ترى هل قالت ذلك على سبيل التهكم؟ ولكني رأيت على وجهها الرزانة والرصانة.

استطردت:

– هل في نيتك أن تودع مرغريت؟

– كلا.

– إنك تحسن صنعا.

– أتظنين ذلك؟

– طبعا.. وما دمت قد قطعت صلتك بها.. فما الفائدة من مقابلتها مرة أخرى؟

– وإذن أنت تعلمين أنني قطعت صلتي بها؟

– إنها أرتني رسالتك..

– وماذا قالت لك؟

– قالت لي "يا عزيزتي برودنس.. إن صاحبك ليس مؤدبا.. هذه العبارات قد تطوف بذهن الرجل الكريم، ولكنه لا يكتبها".

– وبأية لهجة قالت لك هذا الكلام؟

– كانت تضحك.. وقد استطردت قائلة: "إنه تناول الطعام معي مرتين، ولكنه لا يتفضل علي ولو بزيارة تدل على أنه هضم الطعام". إذن فذلك هو كل التأثير الذي تركته في نفسها رسالتي وغيرتي؟

وسألتها:

– وماذا فعلت أمس مساء؟

– إنها ذهبت إلى الأوبرا.

– وبعد ذلك؟

– ثم تناولت العشاء في بيتها.

– بمفردها؟

– بل مع الكونت دي. ج.. على ما أعتقد.وهكذا لم تغير القطيعة شيئا من عادات مرغريت؟

قلت وعلى سفتي ابتسامة مغتصبة:

– يسرني على كل حال أن أعلم أنها لم تحزن بسببي.

– إنها على حق. وأنت قد فعلت ما يجب عليك أن تفعله.وكانت بذلك أكثر منك تعقلا. وأشد تبصرا. لأنها كانت تحبك ولا تتحدث إلا عنك، بل إنها ما كانت تتردد في الإقدام على أية حماقة من أجلك.

– إذا كان صحيحا أنها تحبني. فلماذا لم ترد على رسالتي؟

– لأنها فهمت أن من الخطأ أن تحبك. والمرأة قد تسمح للرجل الذي تحبه أن يخونها. ولكنها لا تسمح له قط أن يهين كبرياءها. ومن الاهانة لكبرياء المرأة. أن يهجرها عشيقها بعد يومين. مهما كانت الأسباب.وأنا أعرف مرغريت حق المعرفة.. وأعلم أنها تؤثر الموت على كتابة رد على رسالتك.

– ماذا يجب أن أفعل إذن؟

– لا شئ.. إنها سوف تنساك.. وأنت سوف تنساها، ولن يكون ثمة ما يستوجب العتاب بينكما.

– ولكن هبي أنني كتبت إليها أسألها الصفح؟

– لا تفعل شيئا من ذلك.. إنها تصفح عنك في الحال.

فكدت أضمها إلى صدري.

وبعد ربع ساعة.. كنت في منزلي أكتب لمرغريت هذه الرسالة:

"شخص يندم على رسالة كتبها أمس. وسيرحل غدا إذا لم تصفحي عنه.. يرغب في أن يعرف الساعة التي يستطيع فيها أن يركع تحت قدميك ويستغفرك".

أمرت خادمي أن يذهب بالرسالة إلى مرغريت.. فتسلمتها بنفسها.. وقالت له أنها ستبعث إلي بالرد.

ولم أغب عن منزلي لحظة واحدة طيلة النهار. دون أن أتسلم ردا. عندئذ قررت أرحل في اليوم التالي.

ولما كنت موقنا من أنني لن يغمض لي جفن طول الليل.. فإنني شرعت في حزم أمتعتي.

الفصل الخامس عشر

دق جرس الباب فجأة، وكنا _ أنا وخادمي –نحزم أمتعتنا، أمرته أن يفتح الباب وأنا أسائل نفسي عمن يكون زائري في مثل هذه الساعة. وعاد الخادم يقول:

– بالباب سيدتان تطلبان مقابلتك.

سمعت صوتا عرفت فيه صوت برودنس. كانت تقول:

– ها نحن يا أرمان.

خرجت من مخدعي فرأيت برودنس في الصالون. وهي تفحص التحف الثمينة التي احتفظ بها. ثم رأيت مرغريت جالسة في أحد المقاعد ومستغرقة في التفكير. أسرعت إليها وهمست وأنا أتناول كلتا يديها:

– عفوا يا مرغريت.

فقبلت جبيني وأجابت:

– إنني أعفو عنك لثالث مرة.

– لقد كنت أنوي الرحيل غدا.

– إنني لم أجئ لأثنيك عن الرحيل. وإنما جئت لأنني لم أجد وقتا للرد على رسالتك. ولم أشأ أن تبرح باريس معتقدا بأنني أنقم عليك. ولم يكن من رأي برودنس أن أقوم بهذه الزيارة مخافة أن أزعجك.

– أنت تزعجينني يا مرغريت؟ أنت؟ وكيف بحق السماء؟

فأجابت برودنس:

– ربما كانت معك إحدى السيدات فيضايقها أن ترانا.

ونظرت مرغريت إلى وجهي بإمعان. بينما كانت برودنس تنطق بهذه الكلمات.

أجبت:

– إنك لا تفهمين ما تقولين يا عزيزتي برودنس.

قالت:

– إنك تقيم في شقة أنيقة. فهل أستطيع أن أرى غرفة نومك؟

– بغير شك..

فقصدت برودنس إلى مخدعي.. وأكبر الظن أنها لم ترغب في زيارتها. بقدر ما كانت راغبة في إخلاء الجو لنا.. تكفيرا عن الحماقة التي نطقت بها.

سألت مرغريت:

– لماذا جئت ببرودنس؟

– لأنها كانت معي في المسرح،ولأنني بحاجة إلى من يرافقني عندما أنصرف من هنا.

– ألست هنا لأرافقك؟

– نعم.. ولكني لم أرغب في ازعاجك. ثم إني على بينة من أنك إذا رافقتني إلى منزلي. فستطلب أن ترافقني إلى مخدعي.. ولما لم يكن في استطاعتي أن أجيبك إلى هذا فقد آثرت أن ترحل.. دون أن أمهد لك برفضي سبيلا للعتب علي.

– ولماذا لا تستطيعين استقبالي في مخدعك؟

– لأنني موضع مراقبة شديدة.. وأية شبهة قد تجلب علي ضررا بليغا.

– هل ذلك هو السبب الوحيد؟

– لو كان هناك سبب آخر لذكرته، فقد أصبحت الصلة بيننا بحيث لا يجوز لأحدنا أن يكتم سرا عن صاحبه.

– قولي الصدق وكوني صريحة يا مرغريت، لأنني سأحدثك بما عندي في غير مواربة.. هل أنت تحبينني ولو قليلا؟

– بل أحبك كثيرا

– إذن لماذا تخدعينني؟

– اصغ إلي يا صديقي. لو كنت دوقة أو مركيزة.. ولي ايراد يقرب من المائتي ألف فرنك.. وكنت خليلتك.. ثم اتخذت من دونك عشيقا آخر.. لكان من حقك أن تسألني (لماذا تخدعينني؟).. ولكني لست دوقة أو مركيزة.. وليس لي هذا الايراد.. وما أنا إلا مرغريت جوتييه.. مضافا إليها دين يربو على أربعين ألف فرنك.إنني لا أملك سنتيما واحدا.. وأنفق مائة ألف فرنك في العام.. فسؤالك إذن لا محل له.. وجوابي إذن لا ضرورة له.

فأجبت.. وأنا أسند رأسي إلى ركبتيها:

– هذا صحيح.. ولكني أحبك حب جنون.

– يجب أن تحبني أقل من ذلك.. أو أن تفهمني خيرا مما تفهمني الآن.إن رسالتك آلمتني كثيرا.. ولو كان أمري بيدي لما استقبلت الكونت.. ولو استقبلته لكنت أسرعت إليك في التماس الصفح الذي تلتمسه أنت مني الآن.. ولما اتخذت لنفسي عشيقا بعد ذلك سواك.لقد مرت بي لحظة توهمت فيها أنني أستطيع – ولو لبضعة شهور – أن أستمتع بالسعادة التي تحدثنا عنها.. ولكنك لم تشأ.. وأبيت إلا أن تعرف وسائلي لبلوغ هذه السعادة. وهذه الوسائل ليس من المتعذر فهمها وإدراكها.. ولكنها تنطوي على تضحية أعظم مما خيل إليك أنني أستطيع الاقدام عليه.لقد كان بوسعي أن أقول لك "أريد عشرين ألفا من الفرنكات". وأنت تحبني.. وستجد حتما وسيلة ما للحصول على هذا المبلغ.. ولكني

أستهدف لأن تعيرني بذلك في المستقبل.. ولهذا آثرت ألا أكون مدينة لك.

غير أنك لسوء الحظ لم تفهم وجهة نظري من ناحيتها العاطفية الدقيقة..إن مثيلاتي من النساء.. إذا بقيت لهن بقية من الشعور فإنهن ينظرن إلى الأشياء بغير العين التي ينظر بها سواهن.. وأنا أقول لك مرة أخرى أن الخطة التي فكرت فيها مرغريت جوتييه لسداد ديونها دون أن تطالبك بالمال اللازم.. هي خطة صادرة عن شعور دقيق.. وكان ينبغي قبولها بغير اعتراض.

لو أن الصلة بيننا قد بدأت اليوم لرحبت بخطتي ولم يخطر لك أن تسألني عما فعلت أول أمس.

إننا نضطر في بعض الأحيان أن نشتري هناءة نفوسنا ببيع أجسادنا. ولشد ما نتألم إذا وجدنا آخر الأمر أن الهناء الموعود قد أفلت من أيدينا.

كنت أحملق نحوها.. وأصغي إليها باعجاب.. وعندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة التي كنت أشعر منذ لحظة بأن السعادة كل السعادة في أن أتمرغ تحت قدميها. عندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة قد أفسحت لي مكانا في فكرها وحياتها وان ذلك كله كان أبعد من أن يرضيني.. لم أتمالك من أن أسأل نفسي "أليس لمطامع الإنسان آخر؟ أم هو كلما حقق مطمعا جد مطمع؟"

واستطردت مرغريت:

– إن ما يقال عن غرابة أطوارنا وتقلب أهوائنا – نحن اللائي نتجر بأجسامنا وعواطفنا – صحيح لا ريب فيها. فنحن الآن نسلم أنفسنا لسبب.. وغدا نسلم أنفسنا لسبب آخر. وهناك رجال يجلبون على أنفسهم الخراب من أجلنا ومع ذلك لا نسمح لهم من أنفسنا بما يشتهون بينما نعطي أنفسنا لآخرين من أجل باقة من الزهور.إن لقلوبنا أطوارها الخاصة. ولها كذلك أهواؤها وأعذارها. وأقسم لك انني أسلمتك نفسي بأسرع مما أسلمتها لأي رجل آخر. فهل تعلم لماذا؟ لأنك رأيت الدم ينزف من صدري. فتناولت يدي وسكبت عليها دموعك، لأنك الإنسان الوحيد الذي أخذته الشفقة بي.

سأحدثك الآن حديثا قد يكون ضربا من السخف. ولكنه حقيقي.كان عندي في وقت ما كلب صغير اعتاد أن ينظر إلي بحزن كلما سعلت.هذا الكلب هو المخلوق الوحيد الذي أحببته. ولما مات. بكيت عليه. كما لم أبك على أمي.وقد أحببتك فجأة. كما كنت أحب كلبي.لو علم الرجال ماذا يستطيعون ابتياعه بدمعة واحدة. إذن لنعموا من حبنا بأكثر مما ينعمون الآن. ولترفقنا بهم. ولم نثقل كواهلهم ونعجل بخرابهم. كما نفعل الآن.إن رسالتك قد نمت عليك. وفضحت جمود قلبك. وأضعفت حبي لك. كما لا يمكن أن يضعفه شئ آخر.كانت عباراتها تنطوي على الغيرة. ولكنها غيرة ساخرة وقحة. وقد كنت حزينة قبل أن أتسلمها.

وكنت أنتظرك بفارغ الصبر. لكي أتناول الطعام معك. وأمحو خاطرا يقلقني. وما كنت أقيم له وزنا قبل أن أعرفك.

إنك كنت الشخص الوحيد الذي توهمت أنني أستطيع معه أن أفكر وأتحدث بحرية وصراحة، لأن كل أولئك الذين يعجبون بفتاة مثلي.. يزنون كل كلمة تنطق بها.. ويستخرجون المعاني من كل حركة تصدر عنها.. فنحن ليس لنا أصدقاء ولكن لنا عشاقا أنانيين يبعثرون أموالهم.. ليس من أجلنا كما يزعمون.. وإنما إرضاء لغرورهم وأمام هؤلاء العشاق.. يجب أن نتظاهر بالمرح.. وإن كان الألم يعصر نفوسنا.. ومحظور علينا أن يكون لنا شعور أو قلب.. وإلا أضعنا سلطاننا.. إننا نحتل المكان الأول من أنانية عشاقنا.. والمكان الأخير من اعتبارهم. ولنا صديقات ولكنهن مثل برودنس. نساء كن فيما مضى يعشن عيشتنا. ثم أقعدهن الكبر فاتخذننا صديقات. وأولئك الصديقات.. لا يبذلن لنا من النصح إلا ما يعود عليهن بالفائدة المادية.. ولا يهمهن أن يكون لنا عشرات العشاق في وقت واحد.. ما دمن ينلن منا أو من عشاقنا ثوبا أو إسورة.. وما دمن يرافقننا أحيانا إلى المسرح أو في نزهة بالمركبة. ولا تقدم إحداهن خدمة لنا.. إلا وتأخذ أجرها مضاعفا.. ولعلك رأيت كيف أنفذت برودنس إلى الدوق في طلب ستة آلاف فرنك.. وكيف أخذت مني أربعمائة فرنك على سبيل القرض،ولكنه قرض لن يرد.إن سعادتي الممكنة.. أو على الأصح.. كانت سعادتي الممكنة – رغم حزني في بعض الأحيان.. ومرضي دائما – أن أجد

رجلا من قوة الخلق. وكبر القلب، بحيث لا يعد علي الحركات والسكنات.. ولا يطالبني بأن أقدم إليه حسابا عن حياتي.. رجلا يعشق في النواحي الحسية أكثر مما يعشق جسدي.. وقد وجدت الرجل الذي أنشده في الدوق، ولكن الدوق شيخ مهدم.. والشيخوخة آخر ما تعطف عليه المرأة.. وقد حاولت أن أحيا الحياة التي اقرحها علي.. ثم شعرت بأن هذه الحياة تقتلني سأما وملالة.. فقلت لنفسي: "إذا كان لابد للإنسان من أن يموت.. فخير له أن يحترق في النار من أن يختنق بالدخان".

وحدث عندئذ أنني قابلتك. أنت الشاب السعيد، المتقد العاطفة، الممتلىء رغبة في الحياة.. فحاولت أن أجعل منك الرجل الذي طالما تخيلته في وحدتي. وأحببتك لا كما أنت.. وإنما كما يمكن أن تكون.. ولكنك لم تقبل ما أردته لك.. ولفظته كشئ لا يخلق بك.. وكنت كذلك رجلا ماديا لا يختلف في شئ عن الرجال العاديين. ولم يبق إلا أن تفعل ما يفعله سائر الرجال.. فتنقدني الثمن وينتهي ما بيننا.

أتعبها هذا الحديث الطويل فنامت في مقعدها ووضعت منديلها على شفتيها لتحبس نوبة السعال التي انتابتها..

قلت:

– عفوا يا مرغريت.. إنني فهمت كل هذا، ولكني أردت أن أسمعه من فمك.. فلننس إذن كل شئ.. ولا نذكر إلا شيئا واحد.. هو أنني لك وأنت لي.. وإننا ما زلنا في ريعان الشباب.. وكل منا يحب صاحبه. اصنعي

بي ما شئت يا مرغريت.. فإنني عبدك.. وفقط مزقي تلك الرسالة.. ولا تدعيني أرحل غدا..

فأخرجت الرسالة من صدرها.. وردتها إلي.. وهي تقول بصوت رقيق:

– انظر.. لقد أحضرتها لك.

فألقيت الرسالة في الموقد.. وقبلت اليد التي ردتها إلي.

وفي هذا اللحظة أقبلت برودنس. فقالت مرغريت:

– هل تعلمين ماذا يطلب يا برودنس؟

– إنه يطلب الصفح.. أليس كذلك؟

– نعم.

– وهل صفحت عنه؟

– لم يسعني إلا أن أصفح.. بيد أنه يريد شيئا آخر.

– وهو؟

– يريد أن يتناول معنا طعام العشاء.

– وهل وافقت؟

– ما رأيك أنت؟

– رأيي أنكما طفلان ليس في رأسيكما عقل.. ورأيي كذلك أنني أكاد أموت جوعا وإن خير البر عاجله.

فقالت مرغريت:

– وأظن أن مركبتي تتسع لثلاثتنا.

ثم تحولت إلي واستطردت:

– وبهذه المناسبة.. أعتقد أن (نانين) قد آوت إلى فراشها.. وانه يتعين عليك أن تفتح الباب فإليك المفتاح.. وحذار أن تفقده مرة أخرى.فقبلت يديها.وجاء خادمي جوزيف. وقال بلهجة الرجل الفخور بما صنع:

– لقد فرغت من وضع الامتعة في الحقائب يا سيدي.

– هل وضعت الأمتعة كلها؟

– نعم يا سيدي.

– أحسنت.. أخرجها من الحقائب إذن.. فقد عدلت عن السفر.

الفصل السادس عشر

كان في استطاعتي أن أسرد عليك كل هذا في كلمات قلائل.. ولكني أردتك أن تعرف كيف تدرجت الصلة بيني وبين مرغريت، حتى أصبحت اطأطئ الرأس لكل رغباتها.. وحتى أصبحت لا تطيق الحياة بدوني.وقد كان في اليوم التالي لتلك الزيارة.. انني أهديت إلى مرغريت كتاب "مانون ليسكو".

لما وجدت مع مرور الأيام أنني لا أستطيع تحويل مرغريت عن الحياة التي ألفتها.. فإنني تحولت عن الحياة التي ألفتها.. وكان كل همي دائما ألا أسترسل في التفكير في الدور الذي قبلت أن أقوم به، لأن التفكير كان من شأنه أن يجلب على الحزن والأسى على الرغم مني.

وهكذا استحالت حياتي الهادئة إلى حياة كلها صخب واضطراب ويجب ألا تتوهم ان معاشرة فتاة كمرغريت.. مهما تجردت من الأطماع لا تكلف كثيرا.. فإنه ليس أغلى من تكاليف الزهور والحلوى والمسارح.. والمآدب.. والرحلات الريفية.. وغير ذلك مما لا يستطيع الرجل أن ينكره على عشيقته.

وأحسبني قد ذكرت لك أنني لم أكن واسع الغنى.. فقد كان أبي ولا يزال صيرفيا، ولكنه رجل عرف بالأمانة والاستقامة فاستطاع أن يدبر لشقيقتي بائنة (دوطة) لا بأس بها.

وكانت والدتي قد توفيت عن ايراد سنوي يقدر بستة آلاف من الفرنكات.. فقسم أبي هذا الايراد بيني وبين شقيقتي.. ومنحني من إيراده الخاص مرتبا سنويا قدره خمسة آلاف فرنك. وأكد لي أن هذه الثمانية آلاف فرنك التي اجتمعت لي تكفي لسداد حاجاتي إذا أقمت في باريس ونصح لي أن أختار بين الاشتغال بالطب أو بالمحاماة.. فجئت إلى باريس.. وواصلت الدرس والتحصيل حتى نلت إجازة المحاماة. ولكني دسستها في جيبي كما يفعل سائر الشباب، وانصرفت إلى حياة اللهو والعبث والبطالة.

وكانت نفقاتي غاية في الاعتدال.. ولكني كنت أنفق كل ايرادي السنوي في ثمانية شهور. ثم أقضي أربعة شهور الصيف في بيت أبي.. وبذلك استطعت أن أوفق بين قلة ايرادي.. وواجبي كولد بار بأبيه، على أنني لم أكن مدينا بسنتيم واحد لكائن من كان.

وقد كان ذلك حالي إلى أن عرفت مرغريت.. فعندئذ تضاعفت نفقاتي على الرغم مني.وقد كانت مرغريت امرأة مدللة.. من أولئك النساء اللائي لا يعتبرن تكاليف الملاهي وضروب التسلية. وآلاف التوافه التي تتألف منها حياتهن شيئا ذا قيمة.. وكانت النتيجة أنها إذا أرادت أن تقضي معي أطول وقت ممكن.. فإنها تكتب إلي في الصباح قائلة أنها تريد

تناول الغذاء معي.. ليس في منزلها.. وإنما في هذا المطعم أو ذاك.. في باريس أو في الضواحي.. فأذهب إليها.. وأصطحبها إلى المطعم الذي ذكرته.. ثم نقصد معا إلى المسرح.. ثم نتناول معا طعام العشاء.. ولا ينقضي المساء حتى أكون قد أنفقت أربعة أو خمسة جنيهات.. أي بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ فرنك شهريا.. وهكذا أصبح ايرادي السنوي لا يكاد يكفي نفقات ثلاثة شهور.. وصار يتعين علي إما أن أغرق في الديون. أو أهجر مرغريت وطبيعي أنني كنت على استعداد لأن أفعل أي شئ وكل شئ إلا أن أهجرها.

ومعذرة إذا كنت أسهب في هذه التفاصيل. فإنها – كما سترى – نواة الحوادث التالية.. ثم إني أسرد عليك قصة حقيقية جديرة بأن تحتفظ بكل بساطتها الطبيعية.

* * *

أدركت إذن أنني ما دمت لا أستطيع أن أهجر عشيقتي.. فمن الضروري أن أبحث عن مورد جديد يكفل النفقات الإضافية التي استحدثتها مرغريت.يضاف إلى ذلك. إن غرامي بمرغريت.. كان يملأ كل جوانحي، حتى أصبحت ساعات الفراق أطول من الأعوام. ففكرت في البحث عن هواية تشغلني طيلة هذه الساعات القاتلة.. وتساعدني على قضاء الوقت بحيث لا أشعر به، فاقترضت ستة آلاف من الفرنكات..

وشرعت أقامر.. وقد أصبحت المقامرة سهلة ميسورة لكل انسان.. في كل مكان منذ أغلقت منتديات الميسر.

وهكذا استحالت حياتي الهادئة الساكنة.. إلى حياة مجنونة كلها حركة ونشاط وانفعال،ولكني لم أجد منها مفرا.. لأنها أصبحت الشئ الضروري المكمل لغرامي بمرغريت.لم يكن يغمض لي جفن طيلة الليالي التي لا أقضيها في شارع دانتان..

كنت أجد نفسي نهبا موزعا بين القلق والأرق والغيرة.. ولكني وجدت في الميسر دواء للحمى التي تنهش قلبي.. فكنت ألازم المائدة الخضراء حتى يحين موعدي مع مرغريت.. فأنهض في الحال. سواء كنت رابحا أو خاسرا.. وكثيرا ما اضطررت إلى النهوض في الوقت المناسب الذي يراه اللاعب الخبير أفضل وقت لترك المائدة..

وحالفني الحظ.. فلم أتورط في الديون.. وتضاعف المبلغ الذي بدأت به اللعب.

وفي هذه الأثناء.. تطورت حياة مرغريت تطورا أدناها من الشفاء صحيا على الأقل.. فقد آليت على نفسي أن أبرئها من سقمها.. وأدركت المسكينة غرضي، فأطاعتني ونزلت على إرادتي، لكي تثبت وفاءها.. ولم أجد صعوبة في عزلها تماما عن كثير من العوامل الهادمة لصحتها.

وكنت قد عرضت أمرها على طبيبي الخاص.. فقال لي أن لا شئ يرد عليها الصحة كالراحة والهدوء والحياة المنتظمة. فوضعت نظاما لطعامها

وراحتها ونومها. وصرفتها عن المآدب والسهرات الطويلة وألفت هي هذه الحياة الجديدة. وأفادت منها.. وأصبحت تقضي أياما برمتها في بيتها. فإذا اعتدل الجو. خرجت بمركبتها للنزهة في الشانزلزيه ومتى عادت. كانت متعبة. فتتناول بعض الطعام. وتعزف قليلا على البيانو. أو تقرأ قليلا في أحد الكتب وهو ما لم تكن تفعله قبلا.

وهكذا استردت صحتها. واختفت تقريبا تلك السعلة العنيفة. التي طالما خيل إلى كلما سمعتها. كأن صدري يتمزق.وبعد ستة أسابيع. امحى ذكر الكونت دي "ج".. تماما فقد ضحت به مرغريت. ونفضت يدها منه. وأصبح الدوق هو الشخص الوحيد الذي يتعين علينا أن نكتم صلتنا عنه.

وجاء الوقت الذي تعودت أن أقضيه بين أبي وأختي. فكتبا إلي بإلحاح يرجو أنني أن أذهب إليهما. ولكني ذهبت أختلق الاعذار. وأطمئنهما بأنني في خير حال. ولا حاجة بي إلى النقود. ظنا مني بأن ذلك يكفي لتبرير اقناعي عن عدم زيارتهما كالمعتاد.

وحدث في يوم صفا جوه ورق نسيمه أن وثبت مرغريت من فراشها وهي ممتلئة نشاطا وحيوية. واقترحت على أن نقضي ذلك اليوم في الضواحي. فأرسلنا إلى برودنس. وانطلقنا ثلاثتنا إلى النزهة بعد أن أوصت مرغريت وصيفتها بأن تنبئ الدوق بأنها (أي مرغريت) قد انتهزت فرصة صفاء الجو فخرجت مع برودنس للنزهة بين الحقول.

ولم تكن برودنس ضرورية لابعاد ريبة الدوق فحسب، ولكنها كانت كذلك من الناس الذين خلقوا لانعاش الرحلات الخلوية. بما طبعوا عليه من المرح وخفة الروح وشدة القابلية للطعام.

وهي التي اختارت لنا أن نقصد إلى (بوجيفال) حيث توجد حانة يقال لها حانة الفجر وتديرها امرأة تدعي مدام ارنولد. فاستأجرنا إحدى المركبات. وبعد ساعة ونصف ساعة كنا في بوجيفال.

ولاشك أنك تعرف حانة (الفجر) فإنها من أبدع الحانات في القرى وبها حديقة كبيرة تشرف على وادي (حامبليون) المترامي الأطراف وعلى جزيرة (كرواسي) التي تتخذ وكرها في قلب نهر (مارلي).

لقد تعود العشاق أن يقرنوا الحب بالحقول والمناظر الطبيعية.. والواقع إنه لا يوجد محيط للمرأة التي نحبها أجمل وأفتن من زرقة السماء وشذى الزهور وسحر الغابات العذراء والحقول النضيرة.

وإذا كنت قد أحببت في أحد الأيام حبا قويا صحيحا.. فإنك بغير شك قد خبرت ذلك الشعور الذي يحبب إلى العاشق أن يعزل من سائر العالم تلك المخلوقة المحبوبة التي يريدها أن تعيش له ومن أجله فقط. كأنه يخشى عليها فتنة الاشياء والمخلوقات التي تحيط بها. أو كأنه يشفق أن يتسرب شذاها إلى الكائنات حولها.

وقد كان ذلك هو شعوري في (بوجيفال).

لم أكن أحب امرأة كسائر النساء. بل كنت أحب مرغريت جوتييه. المرأة التي قد ألتقي في كل خطوة أخطوها في شوارع باريس برجل كان عشيقها بالأمس أو قد يصبح عشيقها غدا.

أما في هذه الحقول. ووسط هؤلاء الناس الذين لا يعرفوننا ولا يهمهم أمرنا. فإنني أستطيع أن أنعم بالحب في غير خجل أو تحفظ.

وتوارت الغانية بالتدريج. ونسيت الماضي أو لم أعد أذكر منه ما يقلق ويخجل. وأصبحت لا أرى بجانبي إلا صبية حسناء تحبني وأحبها. صبية تشرق عليها الشمس كما تشرق على أطهر العذاري.

وأخذنا نجول وسط المناظر الطبيعية الساحرة التي لم تخلق إلا لإلهام الشعراء. ومرغريت تهمس في أذني أعذب كلمات الحب. والعالم الصاخب بعيد عن حواسنا لا يلقي ظلاله الحالكة على صورتنا الباسمة. صورة الشباب والحب.

وأبصرت.. ونحن في تجوالنا على ضفة النهر.. منزلا صغيرا بديعا.. يقع على حافة غابة عذراء.. ويغطيه ثوب أنيق من النباتات الطفيلية المتسلقة.

وأطلت النظر إلى هذا الوكر الجميل.. حتى خيل إلي أنه جزء من حلم العزلة الهنيئة التي كنت أتوق إليها منذ لحظة.. وقلت لنفسي.. هل في الحياة سعادة أعظم من سعادة عاشقين يتخذان هذا البيت وكرا لهما؟!

ولاحظت مرغريت كيف أمعن النظر نحو البيت ولعلها أدركت ما يطوف بذهني من الخواطر لأنها هتفت:

- ما أجمل هذا الوكر..

فقالت برودنس:

- أين هو؟!

فأشارت مرغريت نحو البيت. وهتفت برودنس:

- ما أبدعه.. هل تسرك الإقامة فيه؟!

- تسرني كثيرا..

- إذن ليس عليك إلا أن تطالبي الدوق بأن يستأجره لك.. وفي استطاعتك أن تقنعيه بذلك إذا شئت.

فتطلعت إلى مرغريت كأنها تسألني رأيي.. قلت وأنا لا أزال متأثرا بذلك الحلم البديع:

- إنها فكرة حسنة.

فقالت مرغريت: إذن فسأدبر الأمر..

وضغطت على يدي بحرارة.

كان المنزل خلوا من السكان.. وايجاره السنوي ألفان من الفرنكات..

سألتني مرغريت: هل تكون سعيدا بالإقامة هنا؟

– ومن يعلم إذا كنت سأقيم فيه؟

– لأجل من إذن سأدفن نفسي هنا.. إن لم يكن لأجلك؟!

– إذن دعيني أستأجر لك هذا المنزل بنفسي.

– أنت تعلم.. إنني لا أقبل ذلك إلا من رجل واحد فقط.. فاترك لي إذن تدبير الأمر.

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي.. صرفتني مرغريت من مخدعها مبكرا.. قائلة أن الدوق سيأتي لزيارتها.. وأنها ستكتب إلى بعد انصرافه.. لتحدد موعدا تاليا، وقبيل الظهر تلقيت منها هذه الكلمات "إنني منطلقة إل بوجيفال بصحبة الدوق.. فانتظرني في بيت برودنس في الساعة الثامنة مساء".

وفي الموعد المحدد. أقبلت علينا مرغريت وهي تقول:

– لقد دبرت كل شئ وانتهى الأمر..

فسألتها برودنس:

– هل أستأجر لك المنزل؟

– نعم. دون أن يعترض بكلمة.

لم أكن أعرف الدوق، ولكني لم أتمالك من الشعور بالخجل واستطردت مرغريت:

– ولكن ذلك ليس كل ما هنالك. فقد أعددت كذلك مكانا لإقامة أرمان.

فهتفت برودنس ضاحكة:

– في ذات المنزل؟

– كلا. بل في حانة الفجر، حيث تناولت الطعام مع الدوق..

وقد انتهزت إحدى الفرص. وسألت مدام ارنولد عما إذا كانت لديها غرفة أنيقة تصلح لإقامة شاب أعزب. فأجابت بالإيجاب. وذهبت بي إلى غرفة فاخرة الأثاث. ايجارها الشهري ستون فرنكا. فاستأجرتها في الحال..

أفلم أحسن صنعا؟

فقبلتها. ولم أجب..

وسألت برودنس:

– ومتى تنوين الرحيل إلى بوجيفال؟

– في أقرب وقت مستطاع.

– وهل تأخذين معك مركبتك وجيادك؟

– طبعا.. وسأترك منزلي لعنايتك أثناء غيابي.

وبعد أسبوع.. انتقلت مرغريت إلى بيتها الجديد في (بوجيفال) وانتقلت إلى غرفتي في حانة (الفجر).

ومن ثم بدأنا حياة يتعذر وصفها.لم تتنكر مرغريت في بدء إقامتها في (بوجيفال) لكثير من عاداتها السابقة. ففتحت باب بيتها لأصدقائها

العديدين. ولم يكن يمر يوم دون أن أرى على مائدتها ثمانية أو عشرة من أولئك الأصدقاء..

وراحت برودنس من ناحيتها تدعو جميع أصحابها وصويحباتها.. وتستقبلهم في المنزل كأنه منزلها.

كل ذلك والدوق ينفق بغير تبرم. على أن هذا لم يمنع برودنس من أن تسألني في بعض الأحيان – باسم مرغريت – ألفا أو ألفين من الفرنكات.. وطبيعي أنني كنت أجيبها إلى ما تطلب بغير تردد.. ثم خشيت أن تحتاج مرغريت إلى المزيد من المال.. فاقترضت ستة آلاف من الفرنكات رصدتها لمطالبها، سثم لاحظت مرغريت أن إسرافها في استقبال أصدقائها يكلفها كثيرا من النفقات. ويلجئها إلى معونتي في بعض الأحيان. فعمدت إلى الاقتصاد في دعوتهم والترحيب بهم.

وكان الدوق الذي استأجر لها هذا المنزل خصيصا لتنعم فيه بالراحة والسكينة قد بدأ كذلك يقتصد في زياراته خوفا من أن يجد نفسه عندها وسط طغمة من الشباب العابث الطروب.. وحدث ذات يوم أنه ذهب إليها.. فوجد نفسه وسط خمسة عشر زائرا وزائرة كانوا يتناولون معها طعام الإفطار في الوقت الذي كان يتوقع أن يتناول فيه معها طعام الغذاء. وما كاد الرجل المسكين يفتح باب قاعة الطعام، حتى قابله الزائرون بعاصفة من الضحك.. فتراجع في الحال.

ونهضت مرغريت عن المائدة. ولحقت به في غرفة أخرى.. وحاولت أن تزيل ما علق بنفسه.. ولكن الرجل أحس بأن كرامته أهينت.. فانصرف حانقا مغضبا.. بعد أن قال لها بشئ من الغلظة والقسوة انه تعب من الانفاق على امرأة لا تعرف كيف تجعله محترما في بيتها؟

ولم نره بعد ذلك.. فاضطرت مرغريت أن تمتنع عن دعوة أصحابها.. ثم دعتني إلى الإقامة معها نهائيا. ولم تحاول بعد ذلك أن تكتم العلاقة بيننا.

وأتفق ذات يوم أنني كنت في الحديقة فرأيت برودنس مقبلة.. ولاحظت أن مرغريت قد خفت لاستقبالها.. وأسرعت بها إلى غرفتها.. فأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها.. وملكني فضول إلى معرفة ما هنالك.. فاقتربت من باب الغرفة.. وأصغيت.

قالت مرغريت بلهجة تنم عن القلق:

– حسنا.. ماذا فعلت؟

فأجابت برودنس:

– لقد قابلت الدوق.

– وماذا قال لك؟

– قال أنه على استعداد لأن يغفر لك الإهانة التي لحقت به في بيتك.. ولكنه علم أنك تقيمين علانية مع مسيو ارمان ديفال. وذلك ما لا يستطيع أن يغفره لك. واستطرد قائلا: "قولي لمرغريت أن تهجر هذا

الشاب فألبي جميع رغباتها.. كما كنت أفعل قبلا.. وإلا وجب عليها أن تكف عن مطالبتي بأي شئ".

– وبماذا أجبته؟

– أجبته بأنني سأنقل إليك حديثه، ووعدته بأن أردك إلى الصواب ففكري جيدا يا بنيتي العزيزة.. فكري في المكانة التي ستفقدينها والتي لن يستطيع أرمان أن يعيدك إليها.إنه يحبك من كل قلبه.. ولكن ثروته لا تكفي لتحقيق رغباتك. وإجابة مطالبك.. وسيأتي يوم يهجرك فيه وعندئذ تبحثين عن الدوق فلا تجدينه.

هل تريدينني على أن أتحدث إلى أرمان في صراحة؟

فصمتت مرغريت كأنما تفكر.. ووثب قلبي بعنف في انتظار جوابها.

قالت أخيرا:

– كلا.. إنني لن أهجر أرمان. ولن أتوارى عن الإبصار لكي أعيش معه.ربما كان ذلك هو الجنون بعينه. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ ثم. إنه ألف الحياة معي. بغير عائق. فإذا أقصيته عني ولو ساعة واحدة تألم أشد الألم. وبعد.. فإن حياتي قصيرة. وليس ما يستوجب أن أقضي البقية الباقية من حياتي في شقاء وتعاسة إرضاء لرجل هرم، يشعرني مرآه بوطأة الشيخوخة. كلا.. كلا.. ليحتفظ الدوق بأمواله. إنني لست بحاجة إليها.

– وما العمل إذن؟

– لا أعلم..

ولا أدري ماذا قالت برودنس بعد ذلك، لأنني فتحت الباب فجأة وألقيت بنفسي تحت قدمي مرغريت. ودموع الفرح والحب تنهمر من عيني.

قلت:

– إن حياتي لك يا مرغريت. فلا حاجة بك إلى هذا الرجل. ألست هنا؟ وهل يمكن أن أهجرك أبدا؟ وهل أستطيع إلا أن أثيبك عن السعادة التي تهبينيها؟ كل منا يحب صاحبه. فماذا يهمنا غير ذلك يا مرغريت؟

فغمغمت. وهي تحيط عنقي بساعدها:

– نعم.. إنني أحبك يا أرمان. وأحبك كما لم أتصور قط أنني أستطيع أن أحب. فلنكن سعيدين. ولنعش في هدوء وسلام. ولأودع إلى الأبد الحياة التي يحمر منها وجهي الآن. إنك لن تعيرني بماضي. أليس كذلك يا أرمان؟

فحجبت الدموع صوتي وألجم الانفعال لساني. وكان جوابي الأوحد أنني ضممتها إلى صدري.وعندئذ تحولت إلى برودنس. وقالت بصوت يرتجف من التأثر:

– والآن. في استطاعتك أن تصفي للدوق هذا المنظر. وأن تقولي له بلساننا إننا لسنا بحاجة إليه.

وانتهت الصلة بينها وبين الدوق منذ ذلك اليوم. وأصبحت امرأة غير المرأة التي أعرفها.. فتجنبت أساليب الحياة التي كانت تحياها من قبل. والتي كانت كفيلة بأن تجلب لي الخراب والدمار. وأوقفت علي من حنالها وعنايتها. ما لا يمكن لزوجة. أو أخت أن توقفه على زوجها أو أخيها.

ونفضت يديها من سائر أصدقائها. وأقلعت عن عاداتها السابقة وأسلوبها وإسرافها. وأصبح من المستحيل على من يراها في ثوبها الأبيض البسيط وقبعتها المتواضعة. إن يعرف فيها مرغريت جوتييه التي كانت منذ أربعة شعور مضرب الأمثال في البذخ والتبذل.

وانقضى شهران آخران لم تزر في خلالهما أحدا. ولم يأت أحد لزيارتنا سوى برودنس. وجوليا ايبار التي حدثتك عنها، والتي عهدت إليها مرغريت فيما بعد بيومياتها ومذكراتها.

ورحبت مرغريت بحياتنا الريفية رغم بساطتها.. وأقبلت على قراءة الملاحظات على هوامش الكتاب وكثيرا ما قالت لي إن المرأة إذا أحبت فإنها لا تفعل ما فعلته "مانون"..وقد كتب إليها الدوق رسالتين أو ثلاث، كان يظن إنه يستطيع أن يستردها. إذا حبس عنها أمواله.. فلما لم تجد هذه الوسيلة.. كتب إليها يرجوها أن تسمح له بزيارته كما كان يفعل قبلا. ولم يتلق الدوق ردا.. فكف عن الكتابة إليها.. وسارت حياتنا في مجراها الطبيعي.

الفصل الثامن عشر

كنا نخرج إلى الغابة ليلا فنصغي إلى أنغام المساء. ونحلم بالساعة التي نتعانق فيها إلى الصباح. وأحيانا كنا نقضي النهار كله في الفراش ولا نسمح لأحد أن يقتحم علينا هيكل الحب. حتى تحمل إلينا نانين الطعام فنتناوله في الفراش. ولكن حدث أكثر من مرة أنني لاحظت على وجهها مسحة من الحزن. ولما سألتها أجابت:

– إن حبنا ليس عاديا يا أرمان. وأخشى أن تندم يوما على هذا الحب. وأن ترغمني على العودة إلى الحياة التي انتشلتني منها. إنني أوثر الموت على العودة إلى الماضي بعد أن تذوقت سعادة هذه الحياة الجديدة. فعدني بألا تتركني أبدا يا أرمان.

– إنني لا أعدك. بل أقسم لك.

فنظرت إلى عيني كأنما لتتحقق من إخلاصي. ثم دفنت رأسها فوق صدري وهي تهتف:

– أواه.. إنك لا تعرف كم أحبك؟

وذات مساء، كنا نطل من النافذة ونرى القمر يصارع السحب وقد أمسك كل منا بيد صاحبه حين قالت مرغريت:

– إن الشتاء مقبل. فلنغادر هذا المكان؟

– إلى أين؟

– إلى ايطاليا.

– هل سئمت الإقامة هنا؟

– إنني أفزع من الشتاء. وأفزع من أن نعود إلى باريس.

– لماذا؟

– لأسباب كثيرة.

ثم استطردت.. دون أن تعبر عن أسباب فزعها:

– هل تذهب إلى ايطاليا؟ سأبيع كل ما أملك وسنعيش هناك بما يتجمع لدي من النقود.. وهناك لن يعرفني أحد.. ولن نرى أثرا للماضي.. فهل توافق؟!

– ما دامت هذه رغبتك فلنذهب ولكن القليل الذي أملكه يسمح لنا فقط بسياحة تستغرق خمسة شهور أو ستة.

فقالت وهي تبتعد عن النافذة.. وتجلس على مقعد في ركن مظلم:

– كلا.. كلا.. لماذا تنفق نقودك في الاسفار؟ إنني أكلفك كثيرا هنا.

– هل تلومينني من أجل ذلك يا مرغريت.. وليس هذا من الكرم في شئ؟

فقالت وهي تبسط إلى يدها:

– عفوا يا صديقي.. هذا الجو يؤثر على أعصابي فإني أقول غير ما أعني..

وقبلتني.. واستغرقت في تفكير عميق.

ولم أعرف علة حزنها. وتفكيرها.. ولكني خفت أن تكون قد سئمت هذه الحياة الهادئة التي تتجدد.. ولا يتغير لونها وطعمها.. فاقترحت عليها أن نعود إلى باريس. ولكنها رفضت هذا الاقتراح.. وأكدت أنها لن تكون في أي مكان.. أسعد منها في (بوجيفال) ، ثم لاحظت أن برودنس بدأت تقتصد في زيارتنا.. ولكنها تسرف في الكتابة إلى مرغريت.

وفي أحد الأيام.. لم تبرح مرغريت غرفتها.. فذهبت إليها. ووجدتها تكتب.

سألتها:

– لمن تكتبين؟

فأجابت:

– هذه رسالة برودنس.. فهل تريد أن تقرأها؟

وكنت أفزع من كل ما تشتم منه رائحة الشك والريبة.. فأجبتها بالنفي، ولكني شعرت شعورا غامضا.. بأن مضمون هذه الرسالة يميط اللثام عن السر في حزن مرغريت وكثرة تفكيرها.

وفي اليوم التالي.. اقترحت مرغريت أن نقضي النهار في جزيرة (كرواسي).. وكانت شديدة المرح والسرور فأجبتها إلى ما طلبت.

ولما عدنا إلى المنزل في المساء.. قالت نانين:

– لقد جاءت برودنس.

فسألتها مرغريت:

– وهل ذهبت؟

– نعم.. إنها ذهبت في مركبتك.. قائلة أنها اتفقت معك على ذلك.

فقالت مرغريت بسرعة:

– لا بأس. فلنتناول طعام العشاء.

وبعد يومين وردت رسالة من برودنس.وانقضى بعد ذلك أسبوعان.. خيل إلى فيهما أن مرغريت قد نسيت حزنها الغامض.ولكن المركبة لم تعد.

سألتها في أحد الايام:

– كيف حدث أن برودنس لم ترد مركبتك حتى الآن؟

فأجابت:

– إن المركبة تحتاج إلى بعض الترميم. ثم إن أحد الجياد أصيب بمرض. ونحن على كل حال لسنا بحاجة إلى المركبة هنا..

وجاءت برودنس لزيارتنا بعد بضعة أيام. وأكدت ما قالته مرغريت.وسارت المرأتان معا في الحديقة وهما تتحدثان ولما لحقت بهما.. صمتتا فجأة.

وقبل أن تنصرف برودنس في المساء. تذمرت من شدة البرد.. وسألت مرغريت أن تعيرها معطفها. وانقضى شهر آخر.. كانت مرغريت في خلاله أكثر حيوية وأشد مرحا.

ولكن المركبة لم تعد.. والمعطف لم يرد. فأدهشني ذلك. وانتهزت فرصة وجود مرغريت في الحديقة. وحاولت أن أفتح الدرج الذي اعتادت أن تضع فيه رسائل برودنس. ولكن بغير جدوى. فقد كان الدرج محكم الغلق.وفتحت الأدراج الأخرى.. التي تضع فيها مرغريت حليها ومجوهراتها.. ولشد ما كانت دهشتي عندما لم أجد أثرا للحلي والمجوهرات.

استولت على الريبة. وهممت أن أسألت مرغريت الحقيقة. ولكني شعرت بأنها لن تذكرها لي.

قلت لها:

– يا عزيزتي مرغريت. إنني جئت اسألك أن تسمحي لي بالسفر إلى باريس. فإن أسرتي لا تعرف مكاني. ولابد أنني سأجد في منزلي بضع رسائل من أبي. ولا شك أنه سيشعر بالقلق إذا لم يتلق ردا.

فقالت:

- اذهب إذا .

فذهبت.وأسرعت إلى بيت برودنس.قلت لها في غير لف أو دوران:

- أجيبيني في صراحة يا برودنس. أين مركبة مرغريت وجيادها؟

- بيعت.

- ومعطفها؟

- بيع

- ومجوهراتها؟

- رهنت.

- ومن ذا الذي با ع ورهن هذه الأشياء؟

- أنا

- ولماذا لم تنبئني قبل أن تفعلي شيئا من ذلك؟

- لأن مرغريت أوصتني بالكتمان وحظرت على أن لا أقول لك شيئا.

- ولماذا لم تطلبي مني نقودا؟!

- لأن مرغريت لا تسمح بذلك.

- وماذا صنعت بكل هذا المال؟

- استنفدته في سداد بعض ديونها..

– إذن فهي مدينة بمبالغ طائلة؟

– إنها لا تزال مدينة بثلاثين ألفا من الفرنكات.. ألم أقل لك كل ذلك من قبل أيها الصديق؟ ولكنك رفضت أن تصدقني.. وهأنت ذا تلمس الحقيقة بيدك.. لقد ذهب تجار الأثاث إلى الدوق الذي كان قد وعدهم بالسداد.. ولكنه طردهم.. وكتب إليهم في اليوم التالي يقول أنه لا صلة له بالآنسة مرغريت جوتييه.وعلم سائر الدائنين بأن الدوق هجر مرغريت.. وأنها تعاشر شابا فقيرا.. فألحوا في طلب ديونهم.. وهمت مرغريت أن تبيع كل شئ.. ولكن بعد فوات الوقت.. فقد أوقع الدائنون الحجر على كل ما تملك..ولم تشأ أن تسألك شيئا.. فباعت مركبتها وجيادها. ومعطفها، ورهنت حليها، هل تريد أن ترى وثائق البيع والرهن؟ وقدمت إلى هذه الوثائق.. واستطردت باصرار المرأة التي تشعر بصواب رأيها، وصدق نظرها:

– هل صدقتني الآن؟ إنك ظننت أنه يكفي أن يحب الإنسان وأن يكون محبوبا.. وأن يذهب بصاحبته إلى الحقول.. كلا.. يا صديقي.. كلا.. فإنه توجد إلى جانب الحياة الروحية.. حياة أخرى مادية لا يمكن اغفالها.. وأنبل المشاعر الانسانية تتصل بالأرض بخيوط رقيقة ولكنها أمتن من الفولاذ.

وإذا كانت مرغريت لم تقدم على خيانتك عشرين مرة.. فما ذلك إلا لأنها من طينة شاذة.. غير طينة سائر النساء.

إنني لا ألوم نفسي على أنني نصحت لها بأن تفعل غير ما فعلت.. فقد آلمني في الحق أن أرى هذه الفتاة المسكينة تجرد نفسها من كل شئ ولكنها لم تصغ إلى نصيحتي. وأجابت بأنها تحبك.. وأنها لا تخونك ولو أعطيت ملك الأرض. وكل ذلك جميل جدا وشاعري.. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يسدد ديونه بباقة من العواطف.. أو قصيدة من الشعر.. وها هي ستصبح على قارعة الطريق.. ما لم تجد ثلاثين ألف فرنك بأسرع ما يمكن..

– حسنا.. سأعطيك هذا المبلغ

– هل في نيتك أن تقترضه؟!

– بغير شك..

– هأنت ذا بسبيل عمل بديع.. ستثقل كاهلك بالديون وتخلق المشاكل بينك وبين أبيك.. وفضلا عن ذلك فإنه ليس من السهل أن يجد الإنسان ثلاثين ألف فرنك بين عشية وضحاها.. كلا يا عزيزي ارمان.. إنني أعرف النساء أكثر مما تعرفن.. فلا تقدم على حافة كهذه سوف تندم عليها في أحد الأيام أمر الندم.كن رجلا عمليا. إنني لا أقترح عليك أن تهجر مرغريت.. ولكني أنصح لك بأن تعاشرها كما كنت تفعل في بداية الصيف.دعها تبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق. فالدوق على استعداد لأن يعود إليها.. والكونت دي ن.. قد قال لي أمس فقط بأنه على استعداد لسداد ديونها.. مضافا إليها خمسة آلاف فرنك شهريا إذا

هي قبلته عشيقا لها، وهذا الكونت من أكابر المغفلين.. ولن يكون عقبة بينك وبين مرغريت.

أما مرغريت.. فإنها ستبكي حزنا في البداية.. ثم تألف هذه الحياة.. وتشكرك في أحد الأيام على ما فعلت. وما عليك إلا أن تتصور أن مرغريت متزوجة. وإنك تخدم زوجها.. هذا كل ما هنا لك.إنني قلت لك ذلك قبلا.. ولكني قلته وقتذاك على سبيل النصيحة أما الآن فإنه ضرورة، كان كلامها أقرب ما يكون إلى الصواب.

استطردت:

– إن مثيلاتنا من النساء يتوقعن دائما أن ينزلق العشاق في حبائلهن. ولكنهن لا يتوقعن أبدا أن ينزلقن في حبائل عشاقهن. وإلا أدخرن المال للمستقبل حتى إذا بلغن الثلاثين. أمكنهن الاستمتاع بالحب لذاته.

أوه.. ليتني عرفت فيما مضى ما أعرف الآن. وأخيرا. لا تقل شيئا لمرغريت. وفقط عد بها إلى باريس إنك خلوت بها خمسة أو ستة شهور. وهذا يكفي. فاغمض عينيك قليلا. فذلك كل ما يطلب منك الآن.وبعد أسبوعين يصبح الكونت عبدا لها. فتعمل هي على الاقتصاد والادخار طيلة الشتاء. ومتى أقبل الصيف التالي. أمكنكما اعتزال العالم مرة أخرى.. هكذا تدبر الأمور يا صديقي العزيز

ولا شك إن هذه النصيحة كانت في نظرها خلاصة الحكمة. ولكنني رفضتها مشمئزا.

كان من المستحيل أن يرضي لي حبي أو ترضي لي كرامتي بأن أقوم بهذا الدور. كذلك كنت واثقا من أن مرغريت قد وقفت من طريق الحياة عند المكان الذي تؤثر معه الموت على قسمة نفسها. بيني وبين عشيق آخر.

أجبتها: بحسبك ما قلت على سبيل الدعابة. كم تبلغ ديون مرغريت وعلى وجه التحديد؟

– تبلغ ثلاثين ألف فرنك كما قلت لك.

– ومتى يجب سدادها؟!

– بعد شهرين..

– سأدبر لك هذا المبلغ..

فهزت كتفيها.

قلت:

– سأدبره لك.. ولكن يجب أن تقسمي لي بألا تذكري لمرغريت أنني الذي قمت على سداد ديونها..

– كن مطمئنا..

– وإذا أنفذتك لبيع شئ أو رهنه.. فانبئيني..

– لا خوف من ذلك.. إذ لم يبق لها شئ.

وتركتها عائدا إلى منزلي.. فوجدت هناك أربع رسائل من أبي.

الفصل التاسع عشر

عبر أبي في رسائله الثلاث الأولى عن قلقه لسكوتي مستفسراعن سببه.. ولكنه ألمح في الرابعة إلى علمه بما طرأ على حياتي من التبدل.. وأعلن عزمه على الحضور إلى باريس في الحال فكتبت أنني قمت برحلة قصيرة شغلتني عن الكتابة إليه.. ثم رجوته أن يذكر لي موعد قدومه لأكون في استقباله والترحيب به. ثم ذكرت لخادمي عنواني في بوجيفال.. وأوصيته أن يحمل إلي أول رسالة ترد من أبي.

وعدت في الحال إلى بوجيفال. فوجدت مرغريت في انتظاري بباب الحديقة. وملامحها تنم عن القلق والجزع.. ولكنها ما كادت تبصر بي.. حتى أسرعت إلي.. وألقت بنفسها بين ساعدي.. ولم يسعها إلا أن تسأل:

– هل قابلت برودنس؟

– كلا..

– إنك أبطأت في باريس.

– ذلك لأنني وجدت بضع رسائل من أبي وكان من الضروري أن أكتب الرد.

وبعد بضع دقائق.. دخلت نانين وهي تلهث.. فنهضت مرغريت من مكانها.. وانتحت بها ناحية.. وتحدثتا طويلا

ثم انصرفت نانين.. وعادت مرغريت إلى مكانها بجانبي وقالت وهي تتناول يدي:

- لماذا لم تذكر الحقيقة؟ إنك قابلت برودنس.

- من قال لك ذلك؟

- نانين

- إنها ذهبت في أثرك

- لابد أنك أمرتها بذلك!

- هذا صحيح.. فإنه خطر لي أن أمرا هاما لابد أنه قد استوجب رحيلك الفجائي إلى باريس.. أنت الذي لم تفترق عني لحظة واحدة منذ أربعة شهور.. فاشفقت أن تكون قد نزلت بك كارثة أو تكون ذهبت لمقابلة امرأة أخرى.

- يا لك من طفلة

- ولكني مطمئنة الآن.. فقد علمت على الأقل ماذا صنعت؟ ولكني لا أعلم ماذا قيل لك؟

فأبرزت لها رسائل أبي.

قالت:

– لست اسأل عن هذا.. ولكني أريد أن أعرف لماذا ذهبت إلى برودنس؟

– لمقابلتها.

– أنت لا تقول الحق يا صديقي.

– ما دمت تريدين الحقيقة.. فاعلمي إذن.. إنني أردت أسألها عن صحة الجواد.. وعما إذا كانت لا تزال بحاجة إلى معطفك ومجوهراتك.

فامتقع لونها، ولكنها لم تجب.

استطردت:

– وقد علمت ماذا فعلت بالجياد والمعطف والمجوهرات؟

– وهل يغضبك ما فعلت؟

– إنما يغضبني أنك لم تفكري في أن تسأليني حاجتك

فأجابت:

– في صلة كالصلة التي بيننا.. إذا كانت لدى المرأة بقية من الكرامة واحترام النفس، فإنها تقدم على كل تضحية ممكنة ولا تسأل عشيقها نقودا تكسب حبها لونا تجاريا.

أنا واثقة من أنك تحبني. ولكنك لا تعرف مبلغ ضعف العقدة التي تربط قلب الرجل بامرأة من طرازي. ومن يعلم.. فقد تتوهم في إحدى

ساعات الغضب والسأم أن ما بيننا لم يكن إلا خطة ماكرة من تدبيري لابتزاز أموالك. وبعد.. فما حاجتي إلى المركبة والجياد؟ إنني أستطيع الحياة بدونها، وقد تخلصت من نفقاتها وتكاليفها. ومادمت تحبني فذلك كل ما أبغي. ولا شك أنك ستحبني بدون مركبتي وجيادي ومعطفي ومجوهراتي.

قالت ذلك بلهجة تنم عن الوفاء والإخلاص فاغرورقت عيناي بالدموع وقلت وأنا أضغط يدها بين يدي:

– ولكنك تدركين يا فتاتي العزيزة أنني سأعلم بأمر هذه التضحية في أحد الأيام. وإنني متى علمت بها فلن أحتملها

– لماذا؟

– لأنني لا أريد أن يكون شعورك الكريم نحوي في حرمانك من أقل متعة من متعك. ومن يعلم. فقد يتراءى لك بدورك في إحدى ساعات الغضب والسأم. إنك لو عاشرت رجلا سواي. ما اضطررت إلى الإقدام على مثل هذه التضحية ولا أريدك أن تندمي لحظة واحدة على أنك عاشرتني. كلا يا عزيزتي مرغريت. بعد أيام قلائل سترد إليك مركبتك وجيادك ومجوهراتك. إنها ضرورية لك كالهواء الذي تتنسمينه. وأنا أحبك في بذخك أكثر مما أحبك في بساطتك.. وقد يبدو ذلك مضحكا ولكنه الحقيقة.

– إذن فأنت لا تحبني

– يا لك من بلهاء!

– كلا. لو أنك أحببتني. لتركتني أحبك بطريقتي الخاصة ولكنك ما زلت ترى في فتاة لا ترضى بحياة الإسراف والبذخ بديلا. فتاة تشعر دائما بأنك مرغم على أن تنقدها أجرها.إن كبرياءك ترفض أدلة حبي. وأنت تفكر على الرغم منك في أنك سوف تهجرني يوما ما. وتصر على أن تضع دقة حساسيتك فوق كل شك.إنك على حق يا صديقي.. ولكني كنت أرجو منك خيرا من هذا...

وهمت بالنهوض.. فأمسكت بها وقلت:

– إنني لا أريد غير سعادتك.. ولا أحب أن أترك لك سبيلا للومي والعتب علي.. هذا كل ما هنالك.

– وعلى ذلك فإننا نوشك أن نفترق.

فصحت:

– ولماذا؟ ومن ذا الذي يستطيع التفريق بيننا؟

– أنت.. لأنك لا تسمح لي بأن أفهم مركزك.. وتريد بإصرارك على احاطتي بما ألفته من أسباب الترف والبذخ أن تحتفظ بالهوة الآدبية السحيقة التي تفصل بيننا. أنت.. لأنك لا تؤمن بأنني أحبك حبا بريئا من المطامع المادية أترفض أن تشاطرني ايرادك الذي نستطيع أن نحيا به سعيدين وتأبى إلا أن تورد نفسك موارد الخراب إرضاء لصلفك؟

هل تظن أنني أقوم حبك بالمركبات والمجوهرات؟ هل تتوهم أن سعادتي في المظاهر الجوفاء التي نحرص عليها عندما لا نحب أحدا.. ولا نقيم لها وزنا عندنا نعرف معنى الحب الصحيح؟

تريد أن تقوم على سداد ديوني وأن تضطلع بنفقاتي.. فكم من الوقت تستطيع الانفاق؟ ثلاثة شهور على الأكثر.. ثم تغلب على أمرك.. وتقبل مرغما كل ما أقدمه إليك.. وهو ما لا يرضاه الرجل الشريف.

إن ايرادك في الوقت الحاضر يكفينا لأن نعيش سعيدين وسأبيع من متاعي ما زاد عن حاجتي.. ونؤثث بيتا صغيرا نقضي فيه فصل الشتاء.. وكوخا في الحقول.. نقضي فيه فصل الصيف.. وهكذا ننعم بالشباب والسعادة والحرية.

فبالله يا ارمان.. لا تردني إلى الحياة التي اضطررت فيما مضى أن أحياها.

لم أجد ما أقوله. وامتلأت عيناي بدموع الحب والاعجاب.

قالت:

– إنني أردت أن أدبر كل شئ. فأسدد ديوني، وأؤثث بيتنا الجديد كل ذلك في الخفاء. ودون علمك. ولكن ما دامت برودنس قد حدثتك فيجب أن توافق مقدما. بدلا من أن توافق مؤخرا. فماذا تقول؟

– إنني أرضى بما يرضيك.

واتفقنا على الخطة التي وضعتها.. فكادت تطير فرحا، وراحت ترقص وتغني ولا تتحدث إلا عن البيت الجديد الذي تنوي اعداده لإقامتنا.ورأيت أنها سعيدة بهذا التدبير الذي سوف يجمع بيننا إلى الأبد. فلم أضع في سبيله العراقيل.

وقررت من ناحيتي أن أقابل تضحيتها في سبيل بالنزول لها بصفة دائمة عن الايراد الذي ورثته عن أمي.. ولكني كتمت عنها هذا القرار، لأنني كنت واثقا من أنها لن توافق عليه.

وفي أحد الأيام.. ذهبت مع مرغريت إلى باريس للبحث عن منزل نقيم فيه.. وانتهزت هذه الفرصة.. وقصدت إلى مسجل للعقود للتفاهم معه على اجراءات التنازل.كان مسجل العقود هذا صديقا لأبي. وقد تعودت أن أذهب إليه مرتين في كل عام لتسلم ايرادي.

ولما كان من الضروري أن يعرف الرجل الحقيقة عاجلا إن آجلا.. فقد فاتحته في الأمر بصراحة.. وسرني أنه لم يعارض رغبتي بصفته صديق أبي ومسجل عقود الأسرة.. ووعدني الرجل في النهاية بأن يتخذ الاجراءات الضرورية لتحقيق غرضي.. ولا حاجة بي إلى القول بأنني ألححت عليه أن يكتم الأمر عن أبي.

وانصرفت لمقابلة مرغريت.. وكانت تنتظرني في بيت جوليا ويبار.. ثم شرعنا في البحث عن منزل ملائم.. ووقعنا أخيرا على ضالتنا..

وبعد ثلاثة أيام.. كنت أتناول طعام الافطار مع مرغريت في بيتنا في (بوجيفال).. ولا شاغل لنا غير الاستعداد للمستقبل السعيد.. حين أقبلت (نانين) وأنبأتني بأن خادمي يريد مقابلتي..

ودخل جوزيف.. وقال لي:

– قد جاء والدك إلى باريس يا سيدي.. وهو ينتظرك بالمنزل ويرجو أن تذهب لمقابلته في الحال.

ورغم بساطة هذا النبأ.. فقد حملق كل منا في وجه صاحبه.. وكأنما توقعنا شرا.

قلت لها وأنا أربت على يدها:

– لا تخشي شيئا.

فغمغمت قائلة:

– عد بأسرع ما يمكنك. سأنتظرك بالنافذة.

الفصل العشرين

حينما عدت كان أبي جالسا يكتب أمام طاولة صغيرة في قاعة الاستقبال، وأدركت حينما نظر إلي مدى غضبه تظاهرت بأنني لم ألاحظ شيئا. وشددت على يده بحرارة وسألت:

– متى جئت يا أبي؟

– منذ الأمس

– يؤسفني كثيرا أنني لم أكن هنا لأستقبلك.

ألصق أبي غلاف الرسالة التي كتبها، وأمر خادمي أن يذهب بها إلى صندوق البريد، ولما أصبحنا وحيدين قام واقفا.. واستند بمرفقه على حافة الموقد وقال:

– أريد أن أتحدث إليك في أمر هام يا ارمان.

– إنني مصغ إليك يا أبي.

– هل تعدني بأن تكون صريحا؟

– إنني صريح دائما.

– هل صحيح انك تعاشر امرأة يقال لها مرغريت جوتييه؟

– نعم..

- هل تعرف من هي هذه المرأة؟

- إنني أعرفها حق المعرفة.

- وهل من أجلها أهملت هذا العام في زيارة أختك وزيارتي؟

- نعم يا أبي.. إنني أعترف بذلك.

- هل تحبها كثيرا؟

- أنت ترى لابد أن أحبها كثيرا ما دمت قد أهملت من أجلها واجبا من أقدس الواجبات..

لم يكن أبي يتوقع هذه الأجوبة الصريحة، لأنه فكر لحظة ثم قال:

- وهل أدركت أنك لا تستطيع الاستمرار في هذه الحياة؟

- كنت أخشى ألا أستطيع الاستمرار.

فقال بلهجة أشد صرامة:

- كان يجب أن تفهم أنني لا أسمح لك بهذه الحياة.

- لقد فكرت في أنني ما دمت لا أجلب العار على الاسم الذي أحمله فإنني أستطيع أن أحيا كما اشتهي.

_ لقد حان الوقت الذي يجب فيه أن تجد عن هذه الحياة بديلا.

- ولماذا يا أبي؟!

– سأحدثك في وضوح.. لا بأس من أن تتخذ لك عشيقة.. فذلك من شؤونك.. ولا بأس من أن تنقد عشيقتك ثمن السعادة التي تغذقها عليك. فذلك من واجباتك.. أما أن تهمل أقدس واجباتك من أجل عشيقتك.. وتسمح للشائعات عن حياتك الفاضحة أن تنفذ إلى القرية التي أعيش فيها وتلطخ الاسم الشريف الذي أعطيتك اياه.. فذلك ما لا يجب أن يكون..

– اسمح لي يا أبي أن أقول لك بأن أولئك الذين أبلغوك عني هذه الأمور لم يتحروا الحقيقة..صحيح أنني عشيق مرغريت جوتييه.. ولكني لم أعطها الاسم الكريم الذي خلعته علي. ولم أنفق في سبيلها أكثر مما يسمح به ايرادي.

– إن من حق الأب دائما أن يحول ابنه عن طريق الشر متى رآه ينحدر إليه وأنت لم تأت شرا حتى الآن ولكنك مقدم عليه.. إنني أعرف الحياة أكثر مما تعرفها.. فاعلم إذن أن العواطف البريئة لا توجد.. إلا حيث توجد المرأة الطاهرة.... والآن.. أليس في نيتك أن تهجر عشيقتك؟!

– ولكن هذا مستحيل..

– سأرغمك على تركها..

– ماذا أستطيع أن أفعل يا أبي.. إنني ربما كنت على خطأ، ولكني لن أجد السعادة إلا في حب هذه الفتاة.

– هل مما يشرفك أن تعاشر فتاة ملكها الجميع قبلك؟

– وماذا يضيرني يا أبي.. طالما أن أحدا لن يملكها بعدي فالحب قد خلقها خلقا جديدا؟

– ترى ماذا يكون رأيك في كلامك هذا متى بلغت الأربعين؟ إنك سوف تضحك ساخرا من غرامك.. وترى ماذا كان يمكن أن يكون شأنك الآن.. لو أن أباك جرى على خطتك وأسلم نفسه لنزوات الشباب فكر يا أرمان.. ولا تتشدق بهذه السخافات.. إنك ستهجر هذه المرأة أليس كذلك؟

لم أجب.

استطرد:

– أرمان.. أستحلفك باسم والدتك الطاهرة أن تصغي إلي.. انفض عن حذائك غبار هذه الحياة التي سوف تنساها بأسرع مما تتصور.. إنك لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرك.. ففكر في مستقبلك..أنت لا تستطيع دائما أن تحب هذه المرأة.. وهي بدورها لن تحبك دائما.. كلا كما يبالغ في تقدير حبه.. إنك تسد أمام نفسك أبواب المستقبل.. اذهب إلى أختك واقض عندها شهرا أو شهرين. فيبرئك الحب العائلي المقدس من هذه الحمى..

قال هذه العبارات بلهجة رقيقة ضارعة.. فلم أقو على الكلام.. فواصل هو بصوت يرتجف من التأثر:

– ألا تجيب؟!

فأجبته أخيرا:

– لا أستطيع أن أعدك بشئ يا أبي.. إن ما تطلبه يفوق طاقتي.. إنك تبالغ في تقدير نتائج هذه الصلة.. فمرغريت ليست الفتاة التي تتصورها.. لو أنك عرفت مرغريت يا أبي.. لاقتنعت بأنها ليست المرأة التي تسوقني إلى ما تخشى.

– الأمر الذي لم يمنعها من قبول كل ثروتك، لأن الستة آلاف فرنك التي ورثتها عن أمك.. وتريد أن تنزل لها عنها

هي كل ثروتك.

كان قد احتفظ بهذا التهديد كآخر سهم في جعبته، ولكني كنت أقوى أمام تهديده مني أمام رجائه.

سألته:

– من قال لك أنني أنوي النزول لها عن هذا المبلغ؟

– صديقي كاتب العقود.. إنني لم أحضر إلى باريس.. إلا لأمنعك من السعي إلى خرابك في سبيل هذه المرأة.. لقد أورثتك أمك هذه الثروة.. لكي تعيش بها عيشة الرجل الشريف. لا لكي تقدمها هبة لعشيقاتك.

– أؤكد لك يا أبي. إن مرغريت تجهل أمر هذه الهبة.

– إذن لماذا وهبتها إياها؟

– لأن هذه المرأة التي تنعتها بأبشع الصفات وتطلب إلى أن أهجرها قد ضحت بكل ما تملك لكي تحيا معي.

– وهل قبلت هذه التضحية؟ أي رجل أنت يا سيدي لكي تسمح للآنسة مرغريت بأن تضحي بشئ من أجلك؟.. وكفى.. كفى. لابد أن تترك هذه المرأة. إنني رجوتك منذ لحظة.أما الآن فإنني آمرك أنني لا أسمح بمثل هذه الحماقات في منزلي. احزم أمتعتك.. وتأهب للرحيل معي.

– عفوا يا أبي.. إنني لا أنوي الرحيل..

– لم؟..

– لأنني بلغت سنا تجوز لي ألا أطيع أمرك..

فامتقع وجه أبي.. وقال بعد لحظة:

– حسنا.. إنني أعرف الآن ما يجب أن أفعله.

وقرع الجرس.. فدخل خادمي.

قال له: اذهب بأمتعتي إلى فندق (باريس)

ثم دلف إلى الغرفة المجاورة ليرتدي ثيابه.ولما خرج.. اقتربت منه. وقلت له:

– هل تعدني يا أبي بألا تفعل شيئا من شأنه أن يؤلم مرغريت؟

فرمقني بعينيه باحتقار وأجاب:

– أظن أنك جننت.

وخرج. وأغلق الباب وراءه بعنف فتريشت لحظة ثم انصرفت بدوري، واستأجرت مركبة انطلقت بي إلى بوجيفال

وهناك وجدت مرغريت واقفة في نافذتها تنتظرني.

الفصل الحادي والعشرين

قصصت عليها ما دار بيني وبين أبي. فقالت:

– هذا ما حدثني به قلبي عندما علمت بقدوم أبيك. مسكين أنت يجب أن تهجرني بدلا من أن تغضب أباك

– يجب أن نصمد يا مرغريت إلى أن تمر العاصفة..

– ولكن أباك لن يقف عند هذا الحد.

– ماذا تعتقدين أنه سيفعل؟

– لا أعلم. ولكنه سيفعل كل ما يمكن أن يفعله الأب ليرغم ولده على طاعته. وسيذكرك بماضي. وقد يشرفني بقصة جديدة يخترعها عني لينفرك مني ويحملك على هجري.

– أنت تعلمين أنني أحبك.

– نعم.. ولكني أعلم كذلك بأنك يجب أن تطيع أباك.

– كلا يا مرغريت إنه متأثر بكلام بعض أصدقائه ولكنه في الواقع طيب القلب ثم فيم يهمني غضبه أو رضاه؟

– لا تقل ذلك يا أرمان. إنني أوثر أي شئ على أن يقال إنني سبب الخلاف بينك وبين أبيك. فدع اليوم يمر واذهب إليه غدا بعد أن تهدأ ثورة

الغضب وتظاهر بالرضوخ لبعض رغباته. فيهدأ بالا. ويترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي وكن واثقا من أنه مهما حدث فإن مرغريت لن تتحول عن إخلاصها.

– هل تقسمين؟

– وهل يجب أن أقسم؟

قضينا بقية النهار في التفكير والتدبير للمستقبل ونحن ننتظر في كل لحظة أن يحدث جديد، ولكن اليوم انقضى ولم يقع شئ. وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي قصدت الفندق الذي انتقل إليه أبي ولكن قيل لي أن أبي قد انصرف. فقصدت مكتب مسجل العقود. ولكني لم أجده أيضا فعدت إلى الفندق. وانتظرت حتى الساعة السادسة دون جدوى. ولما عدت إلى بوجيفال. لم تكن مرغريت في انتظاري كالعادة. رأيتها جالسة بجوار الموقد. ومستغرقة في التفكير بحيث لم تشعر بي. ولما قبلت جبينها رفعت رأسها بحدة كأنما أيقظتها القبلة فجأة من نوم عميق.

قالت:

– إنك روعتني. هل قابلت أباك؟

– كلا.. فقد بحثت عنه في كل مكان اعتاد أن يختلف عليه.

– إذن يجب أن تعيد الكرة غدا.

– الرأي عندي أن أنتظر حتى يرسل في طلبي في واعتقادي أنني فعلت ما فيه الكفاية

– كلا.. هذا لا يكفي.. ويجب أن تعود إلى أبيك. غدا بصفة خاصة.

– ولماذا غدا دون أي يوم آخر؟

فاحمر وجهها قليلا ولكنها أجابت:

– لأن هذه المواظبة من جانبك تبدو أدل على الإخلاص وحسن النية وقد تثير عطف أبيك.

قضت مرغريت بقية النهار حزينة مكتئبة وقد بررت كآبتها بأنها من تأثير الخوف الذي أوقعته في نفسها مفاجآت اليومين الاخيرين. وفي صباح اليوم التالي.. أصرت على رحيلي، ولم أجد أبي في الفندق.. ولكنه ترك لي بطاقة عليها هذه الكلمات:

"إذا حضرت لمقابلتي اليوم فانتظرني حتى الساعة الرابعة، وإذا لم أعد في الساعة الرابعة فتعال غدا لمقابلتي وتناول طعام الغذاء معي. فإنني أريد أن أتحدث إليك"

فانتظرت حتى الساعة الرابعة.. ولم يحضر أبي. فانصرفت.

كانت مرغريت في اليوم السابق حزينة مهمومة. أما اليوم فقد وجدتها شديدة الاضطراب والانفعال.. وما إن وقع بصرها علي حتى

احاطت عنقي بساعديها وانفجرت باكية، ولما سألتها عن سر هذا الحزن الفجائي الذي ضاعف فزعي.. لم أجد عندها جوابا شافيا.. ولجأت إلى الاعذار المصطنعة التي تخترعها المرأة عادة عندما ترغب في كتمان الحقيقة.

ولما زال اضطرابها قليلا.. حدثتها بنتيجة رحلتي.. وأبرزت لها بطاقة أبي.. وقلت إن لهجة الرسالة تدعو إلى التفاؤل.

أما هي فإنها ما كادت ترى البطاقة وتسمع ملاحظتي على مضمونها.. حتى سألت دموعها مرة أخرى.. فاشفقت أن تنتابها نوبة عصيبة.. ودعوت (نانين) وتعاونت معها على وضع الفتاة المسكينة في فراشها. غير أنها ظلت تبكي. وهي ممسكة بيدي.. تقبلها بين الفينة والفينة دون أن تنطق بكلمة.

وسألت نانين.. هل تسلمت سيدتها رسالة آلمتها.. أو زارها في غيابي زائر أزعجها.. ولكن الوصيفة أجابت سلبا.

بيد أنني كنت موقنا أن (شيئا) لا أعلمه قد حدث، فأحزن مرغريت أمس.. وأزعجها اليوم.. وهي لا تريد أن تبوح لي به.

وهدأ اضطرابها قليلا في المساء. فاجلستني بجانبها. وراحت تجدد عهود حبها. وإخلاصها. وتبتسم لي. ولكن بجهد، لأن الدموع كانت تملأ عينيها بالرغم منها.وقد لجأت إلى كل حيلة ممكنة لحملها على الاعتراف بأسباب حزنها ولكنها أصرت على أجوبتها المبهمة التي لا تشفي غليلا.

وأخيرا نامت بين ساعدي. ولكنه كان نوما متعبا للجسم لا مجددا لقواه، لأنها كانت تهذي تارة، وتصرخ مرة أخرى. وتنهص فجأة بين الفينة والفينة. حتى إذا استوثقت من وجودي بجانبها طلبت إلي أن أقسم بأن أحبها دائما.

ثم غلبها النعاس آخر الأمر فاستغرقت في نوم عميق استمر إلى الساعة الحادية عشرة.

ولما استيقظت. نظرت حولها. وسألتني:

– هل ستذهب الآن؟

فأجبتها وأنا أربت على يدها:

– كلا. فلا يزال الوقت مبكرا..

– ومتى تذهب إلى باريس إذن؟

– في الساعة الرابعة..

– بهذه السرعة.. إذن فابق معي حتى يحين وقت الرحيل.. هل تبقى معي؟

– طبعا.. ألا أفعل ذلك دائما؟!

– يا للسعادة!! فلنتناول طعام الإفطار إذن!!

– على رسلك.

– وهل تزودني بقبلاتك حتى ترحل؟

– نعم.. وسأعود بأسرع ما يمكن..

فنظرت إلي بعينين شاردتين.. وغمغمت:

– هل تعود حقا؟!

– طبعا

– هذا صحيح.. إنك ستعود الليلة.. وسأنتظرك كالعادة.. وستحبني.. ونكون سعيدين كما كنا منذ عرف أحدنا الآخر.

قالت ذلك بصوف أجوف.. خيل إلي أنه يحجب فكرة مؤلمة..

قلت لها:

– اصغي إلي.. إنك مريضة ولا أستطيع أن أتركك هكذا. سأكتب إلى أبي لكيلا ينتظرني.

فهتفت:

– كلا.. كلا.. لا تفعل ذلك وإلا اتهمني أبوك بأنني أمنعك عن مقابلته كلما أراد أن يراك.. كلا.. كلا.. يجب أن تذهب.. وبعد.. فإنني لست مريضة.. إنني في خير حال.. كل ما هنالك أنني رأيت بين النوم واليقظة حلما مخيفا.وحاولت بعد ذلك أن تبدو مرحة مغتبطة.

ولما حان وقت الرحيل.. قبلتها.. واقترحت عليها أن ترافقني إلى المحطة.. عسى أن ينعشها السير والنسيم. فوافقت. وألقت على منكبيها معطفا.. وخرجت معي.. وخطر لي مائة مرة أن أعدل عن الرحيل. ولكني أشفقت أن أغضب أبي أكثر مما أغضبته.

قلت لمرغريت عندما تحرك القطار:

– إلى المساء إذن..

ولكنها لم تجب..

وقد حدث مرة قبل ذلك.. أنها لم تجب علي مثل هذه الكلمات. كان ذلك عندما قضت ليلتها مع الكونت دي ج..ولكن هذا الحادث وقع منذ وقت طويل، حتى كدت أن أنساه وفضلا عن ذلك فإن خيانة مرغريت أصبحت الآن آخر ما يثير مخاوفي..

ولما وصلت إلى باريس.. أسرعت إلى بيت برودنس كي أرجوها أن تذهب إلى مرغريت.. لترفه عنها.. وتدخل السرور على نفسها.. وجدتها أمام أدوات الزينة. فهتفت في شئ من القلق:

– آه.. هل جاءت مرغريت برفقتك؟

– كلا..

– وكيف هي؟

– إنها مريضة.

- أليس في نيتها الحضور؟

- وهل يجب أن تحضر؟

فاحمر وجهها. وقالت في ارتباك:

- كان من الطبيعي أن أنتظر قدومها معك. ما دمت قد جئت إلى باريس.

- كلا. إنها لا تأتي.

ونظرت إليها بحدة فأطرقت برأسها.

قلت:

- إنني جئتك الآن يا عزيزتي برودنس لكي أرجوك في أن تذهبي إلى مرغريت. وتقضي المساء معها. فإنني لم أرها قط كما هي اليوم. وأخشى أن يصيبها مرض.

فأجابت:

- إنني الليلة على موعد لتناول طعام العشاء في باريس. وليس في استطاعتي أن أذهب إلى مرغريت،ولكني سأزورها غدا.

فشكرتها. وقصدت إلى الفندق. فوجدت أبي في انتظاري. شعرت من نظرته الأولى إلي أن غضبه علي قد زال.

قال وهو يبسط إلي يده:

– سرني أن تزورني مرتين يا أرمان. وهذه الزيارة المزدوجة إذ دلت على شئ. فعلى أنك فكرت في الأمر مليا. كما فكرت أنا فيه.

– هل تسمح لي يا أبي.. بأن أسألك.. ماذا كانت نتيجة تفكيرك؟

– كانت أنني شعرت بأنني بالغت في تقدير أهمية الشائعات التي سمعتها. وإنني قررت أن أكون أرحم بك وأكثر عطفا عليك.

فصحت في جذل:

– ماذا تقول يا أبي العزيز؟

– أقول يا ولدي، إن كل شاب يجب أن تكون له خليلة وإنني أفضل، بعد المعلومات التي استقيتها، أن تكون عشيقا لمدموازيل جوتييه من أن تكون عشيقا لأية امرأة أخرى.

– يا أبي العزيز. ما أسعدني بك.

وتحدثنا قليلا. ثم جلسنا لتناول طعام الغذاء.

وكان أبي جذلا. أما أنا فكنت أتحرق شوقا للعودة إلى بوجيفال، لكي أزف إلى مرغريت هذا النبأ السعيد.

كنت أنظر إلى الساعة في كل دقيقة. فقال أبي:

– إنك قلق. وتريد أن تتركني بأسرع ما يمكن. أليس كذلك؟. آه. لكم الله أيها الشباب. إنكم تضحون بالعواطف الخالصة. على مذبح العواطف المريبة.

– لا تقل ذلك يا أبي. أن مرغريت تحبني وإني واثق من ذلك.

فلم يجب. ولم يبد عليه أنه صدقني أو لم يصدقني.

وألح علي في البقاء إلى اليوم التالي. ولكني قلت له أن مرغريت مريضة. وأن غيابي سيقلقها حتما. ثم وعدته أن أزوره في اليوم التالي.

وكان الجو صحوا. فاقترح أن يرافقني إلى المحطة.وشعرت بأنني لم أكن في حياتي أسعد مني في ذلك اليوم.. وبأنني أحب أبي. كما لم أحبه من قبل.

وقبل أن يتحرك القطار. سألني مرة أخرى أن أبقى. فرفضت.

– أنت تحبها باخلاص إذن؟

– بل أحبها حب جنون.

– اذهب إليها إذن.

الفصل الثاني والعشرين

كان يخيل إلي أن القطار لا يتحرك.

وصلت إلى بوجيفال في الساعة الحادية عشرة.. ولم أر ضوءا في أية نافذة من نوافذ البيت.. فقرعت الجرس مرارا.. وانتظرت طويلا وأخيرا فتحت نانين الباب.. وأضاءت مصباحا.

سألتها:

– أين سيدتك؟!

فأجابت:

– ذهبت إلى باريس

– إلى باريس!

– نعم يا سيدي

– متى؟!

– بعد ساعة من انصرافك.

– ألم تترك لي رسالة؟!

– كلا.

– هل قالت لك أنها على موعد؟!

– كلا..

وتركتني الفتاة وانصرفت إلى غرفتها. وقلت لنفسي:

– ربما تكون قد ارتابت في الأمر وحسبت أنني ما ذهبت إلى باريس إلا لأستمتع بالحرية يوما.. فأرادت أن تتأكد بنفسها. ويحتمل أن تكون برودنس قد كتبت إليها تستقدمها لأمر هام خاص بديونها. ولكنني قابلت برودنس في باريس.. ولم تذكر لي شيئا. وفجأة.. تذكرت سؤال برودنس حين قالت: (إذن فليس في نيتها أن تأتي اليوم؟) وتذكرت ارتباكها.. حين نظرت إليها بعد هذا السؤال الذي يشتم منه انهما كانتا على موعد. ثم تذكرت دموع مرغريت وحزنها الغامض. وإلحاحها علي في الرحيل.. وسألت نفسي ما معنى كل هذا؟! ترى هل أقدمت على خيانتي.. واعتمدت على أنها تستطيع العودة قبلي.. ولم أحول بصري عن عقربي الساعة حتى انتصف الليل.. وأيقنت ألا أمل في الانتظار على أنني لم أصدق.. بعد الذي رأيته من دلائل حبها وتضحياتها أنها تقدم على خيانتي. كلا. كلا. لابد أنها وجدت من يبتاع أثاثها فذهبت إلى باريس لهذا الغرض. وكتمت الأمر عني لكيلا تؤلمني. ولما أمسى عليها المساء قصدت إلى بيت برودنس. ثم من يدري. فلعلها الآن في طريقها إلى هنا.

ولكن الساعات مرت كأنها أجيال. ولم تعد مرغريت، ولم أجسر على الاستمرار في التفكير. فتناولت كتاب "مانون ليسكو " وتصفحته، خيل

إلي أنني أرى في بعض صفحاته آثار الدموع.على أنني لم أستطع القراءة.. فطويت الكتاب.. وسرت إلى النافذة.. ولكني لم أسمع صوت مركبة. أو وقع حوافر جياد..ثم دقت ساعة الكنيسة دقاتها الحزينة وعندئذ استبد بي القلق.. فقصدت إلى غرفة نانين..وكانت الفتاة نائمة.. ولكنها استيقظت عندما فتحت الباب.

وسألت:

– هل عادت سيدتي؟!

فأجبتها:

– كلا.. ولكن متى عادت فقولي لها أنني ذهبت للبحث عنها في باريس.

– في هذه الساعة؟!

– نعم..

– ولكن كيف؟! إنك لن تجد مركبة تذهب بك.

– سأذهب سيرا على قدمي.

– إن السماء تمطر..

– ذلك لا يهمني..

– إن سيدتي ستعود حتما. وإذا لم تعد. فإنك ستجد متسعا من الوقت غدا للبحث عنها.

– إنني أوثر أن أبحث عنها الآن...

جاءتني بمعطفي. ووضعته على كتفي. وتناولت مفتاح شقة مرغريت في شارع دانتان وانصرفت. أخذت أعدو في البداية،حتى أرغمني التعب على التريث. وكان الظلام شديدا فخشيت أن أصطدم بإحدى الاشجار التي كانت تتراءى لي كأنها أشباح مقبلة نحوي.. فقررت أن أتمهل في سيري.ومرت مركبة تنهب الأرض في الطريق إلى (بوجيفال) فانتعشت آمالي. ورجوت أن أجد مرغريت في هذه المركبة فصرخت:

– مرغريت.. مرغريت.

ولكني لم أسمع جوابا. واستمرت المركبة في طريقها. وأشرفت أخيرا على باريس.. لم أصادف أحدا في طريقي. وخيل إلي أنني أسير في مدينة الموتى. ولما وصلت إلى شارع دانتان. كان الفجر قد بزغ ودقت ساعة إحدى الكنائس خمس دقات. طرقت باب مرغريت. وذكرت اسمي للبواب. وكنت قد أعطيته من القطع الذهبية ما جعله يعرف اسمي. ويعلم أن من حقي أن أزور الانسة جوتييه في الساعة الخامسة صباحا. ولم أسأله عن مرغريت، خوفا من أن أسمع جوابه بالنفي. وآثرت الشك مع الأمل على اليأس المطلق. أسرعت إلى شقة مرغريت. فتحت الباب. ودخلت كانت جميع النوافذ مغلقة. والستائر مسدلة. ففتحت نافذة في قاعة

الطعام. وانبثق ضوء الفجر إلى جوف الشقة. وأسرعت إلى مخدع مرغريت. وفتحته. ونظرت إلى الفراش. كان خاليا. نفذت من باب إلى باب وانتقلت من غرفة إلى غرفة.. ولكني لم أجد أحدا.. وأخيرا.. قصدت إلى قاعة الثياب.. وفتحت نافذتها.. وناديت برودنس مرارا.. ولكني لم أسمع جوابا. وعدت إلى البواب.. وسألته.. هل جاءت مرغريت إلى شقتها أثناء النهار؟

فأجاب:

– نعم يا سيدي.. إنها جاءت ومعها مدام برودنس..

– ألم تترك لي رسالة؟!

– كلا..

– هل تعلم ماذا فعلتا بعد ذلك؟!

– انصرفتا في مركبة..

– وما نوع هذه المركبة؟!

– مركبة أجرة..

ـ يا إلهي.. ما معنى كل هذا؟

طرقت باب المنزل المجاور.. ففتحه البواب وسألني:

– ماذا تريد يا سيدي؟

– أريد مقابلة مدام برودنس.

– إنها لم تعد بعد وها هي رسالة وردت إليها أمس ولم تتسلمها بعد.

ولوح بالرسالة في يده.. فوقع بصري على غلافها وعرفت خط مرغريت.

تناولتها بلهفة وقرأت على غلافها هذا العنوان "إلى مدام برودنس. لتسليمها إلى مسيو ديفال"

فهتفت:

– هل الرسالة لي؟

سألني:

– هل أنت مسيو ديفال؟

– نعم..

ابتعدت عن المنزل. وفضضت الرسالة. ولو أن صاعقة انقضت أمامي لما أذهلتني كما أذهلني مضمون هذه الرسالة.

قرأت فيها هذه الكلمات:

"عندما تقرأ هذه الرسالة يا ارمان.. أكون قد أصبحت عشيقة رجل آخر.. وبهذا ينتهي كل ما كان بيننا

"عد إلى أبيك يا صديقي"

"اذهب إلى أختك فهي صبية عذراء تجهل كل تعاستنا وبؤسنا وسوف ينسيك عطفها ما قدر لك أن تعانيه على يد مرغريت جوتييه تلك المرأة التي كتب لها الضياع.. والتي تدين لك بالسعادة القصيرة التي نعمت بها في حياتها".

عندما قرأت هذه الرسالة خيل إلي أن عقلي يوشك أن ينفجر؟ وغشيت عيني سحابة مظلمة.. وركض الدم في عروقي بقوة.وأخيرا ملكت نفسي قليلا.. ونظرت حولي.. وأدهشني أن أرى الدنيا لا تزال دنيا رغم الكارثة التي نزلت بي وسحقت قلبي.

لم تكن لدي القدرة على احتمال هذه الصدمة بمفردي.. وجرى خاطري إلى أبي.. فهو الوحيد الذي أستطيع أن أفزع إليه في محنتي.. والوحيد الذي يستطيع أن يرفه عني..

انطلقت أعدو كالمجانين..، حتى وصلت إلى فندق باريس.. وصعدت إلى غرفة أبي.كان بابها مفتوحا.. وكان أبي يقرأ.. فنظر إلي بقليل من الدهشة.. وكأنه كان ينتظر قدومي..ألقيت بنفسي في حضنه وانفجرت باكيا.

الفصل الثالث والعشرين

قضيت الشهر التالي بين أبي وأختي ولم يغنني عطفهما عن التفكير في مرغريت..كان من المستحيل أن أنساها أو أنسى الطعنة التي أدمت بها قلبي. وشعرت أكثر من ذلك برغبة شديدة في أن أراها للمرة الأخيرة فقلت لأبي إنني أنوي السفر إلى باريس لشأن ما وسأعود بسرعة. ولا شك أنه أدرك غرضي، لأنه ألح علي في البقاء. فلما أصررت ضمني إلى صدره. ورجاني أن أعود إليه بأسرع ما يمكن. ولم يغمض لي جفن حتى وصلت إلى باريس. وكان أول ما فعلته أنني قصدت إلى الشانزلزيه ولم تنقض ساعة حتى رأيت مركبة مرغريت قادمة من ناحية الكونكورد. ومرت بي المركبة. ووقع بصري على مرغريت وهي تقترب ومعها فتاة لم أرها من قبل. ومرت المرأتان بالقرب مني.. ولاحظت أن مرغريت قد امتقعت وعلت شفتيها ابتسامة عصبية، فتظاهرت بالهدوء إلى أن مضت المركبة بالمرأتين.كنت واثقا من أن هذه المقابلة الفجائية قد أذهلتها.. فهي قد علمت بأنني رحلت وظنت أنها تخلصت مني إلى الأبد أما الآن.. بعد أن قابلتني وجها لوجه فإنها سوف تتساءل عن غرضي من العودة.. لو أنني وجدتها شقية تعسة.. إذن لأمكن أن أصفح عنها.. ولكني على العكس.. قد وجدت عليها كل مظاهر النعمة التي أغدقها عليها عاشقها الجديد.كان من المستحيل ألا أكترث بأمرها.. ولكني كنت واثقا.. من أن عدم اكتراثي سوف يضايقها أكثر من أي شئ

آخر في الوجود، لذلك رأيت أن أتظاهر بقلة الاكتراث أمامها وكذلك أمام جميع الذين يعرفون الصلة التي كانت بيننا.

وهكذا قصدت إلى بيت برودنس. وعلى شفتي ابتسامة مصطنعة. وبعد انتظار بضع دقائق أقبلت برودنس. وما كدت أجلس حتى سمعت في الغرفة المجاورة وقع أقدام تتحرك بخفة. ثم فتح الباب الخارجي وأغلق بعنف.

قلت لبرودنس:

– ترى هل أزعجك قدومي؟

– كلا.. على الاطلاق. لقد كانت مرغريت هنا. فلما ذكرت الخادمة اسمك أسرعت بالفرار.

– وإذن فأنا أخيفها الآن!

– كلا. ولكنها تخشى أن يزعجك مرآها.

– وكيف؟ هذه المسكينة قد هجرتني لتسترد مركبتها ومجوهراتها.. فليس ثمة ما يستوجب غضبي عليها..

ثم استطردت بقلة اكتراث: إنني قابلتها اليوم..

– أين؟!

– في الشانزلزيه.. وكانت معها فتاة أخرى فمن هي هذه الفتاة؟!

– هل تذكر أوصافها؟!

– إنها شقراء لها عينان زرقاوان وترتدي ثوبا أنيقا..

– آه.. هذه هي أوليمبيا .. إنها جميلة حقا.

– مع من تعيش؟!

– إنها لا تعيش مع أحد.. وتعيش مع كل انسان..

– وبيتها؟

– بشارع ترونشيه رقم.. ٥١.. هل ترجو أن تخطب ودها؟!

– من يعلم ماذا يأتي به الغد؟!

– ومرغريت؟!

– إذا قلت لك أنني لم أعد أفكر فيها كنت كاذبا.. إن مرغريت نبذتني ببساطة جعلتني أشعر بأني كنت مغفلا حين أحببتها. لأنني في الواقع.. كنت أحبها.

– إنها أيضا أحبتك. ولا زالت تحبك.. وآية ذلك أنها ما كادت تراك اليوم حتى أسرعت إلي لتقول لي ذلك.. ولما وصلت إلى هنا.. كانت تلهث وتترنح إعياء وانفعالا..

– وماذا قالت لك؟

– قالت لي "لا شك أنه سيأتي لزيارتك" ثم طلبت إلي أن أسألك الصفح عنها.

– إنني صفحت.. فقولي لها ذلك.. إنها لم تفعل إلا ما كان يجب على أن أتوقعه من فتاة مثلها..

– ولكنها ستكون أهدأ بالا إذا علمت أنك تدرك الظروف التي ألجأتها إلى ما فعلت..إنها هجرتك في الوقت المناسب يا صديقي.. فقد علم دائنوها أنها تهم ببيع أثاثها بثمن معقول. لتقوم على سداد ديونهم.. فشفقوا أن تفلت منهم هذه الصفقة.. وقرروا طرح الأثاث للبيع بعد يومين.. وإرسال مندوبيهم لشرائه بثمن بخس.

– والآن هل دفعت كل ديونها؟

– تقريبا..

– ومن الذي أمدها بالمال؟..

– أعطاها الكونت عشرين ألفا من الفرنكات، ولكنه نال بغيته..إنه يعلم أنها لا تحبه.. ولكنه يعاملها بكرم وسخاء.. فابتاع لها مركبتها وجيادها ورد إليها حليها.. وهو يعطيها الآن أكثر مما اعتاد الدوق إعطاءها.

– وهل تقيم الآن في باريس بصفة دائمة؟!

– إنها رفضت العودة إلى بوجيفال.. وطلبت إلي أن أحزم أمتعتها هناك... وحزمت أمتعتك كذلك.. فيما عدا حقيبة صغيرة عليها الحروف الأولى من اسمك.. رغبت مرغريت في الاحتفاظ بها.. إذا طلبتها سوف أستردها منها..

فغمغمت:

– لتحتفظ بها كما تشاء..

وصعدت الدموع من قلبي إلى عيني..ولو دخلت مرغريت لحظتها، لطلقت فكرة الانتقام وألقيت بنفسي تحت قدميها.

قالت برودنس:

– على أنني لم أرها قط كما هي الآن.. إنها لا تنام على الإطلاق... هل في نيتك أن تزورها؟

– إنني جئت لزيارتك،لأن لك الفضل في أنني كنت عشيقها.. والفضل في أنني لم أعد كذلك..

– إنني قد فعلت كل ما أستطيع لكي أحملها على إقصائك وكنت على يقين من أنك ستشكرني في النهاية.

وانتهى الحديث بيننا.. وانصرفت من بيتها وفي عيني دمعة غضب وفي صدري صيحة انتقام. هكذا كانت مرغريت بغيا كسائر البغايا. وهكذا لم يقو الحب العميق الذي زعمته لي على مقاومة حبها الغريزي للترف؟..وقضيت الليل كله.. في التفكير والبحث عن كل وسيلة ممكنة لتعذيبها وعلمت أن مرغريت اتخذت أوليمبيا صديقة لها منذ عودتها إلى باريس.. وعرفت أن في نية هذه الأخيرة أن تقيم في بيتها حفلة راقصة. وأيقنت أن مرغريت ستشترك في هذه الحفلة. فسعيت للحصول على

دعوة وذهبت إلى الحفلة، فرأيت القوم يرقصون ويغنون. ووقع بصري على مرغريت وهي تراقص الكونت. وهو ينظر حوله في خيلاء. كأنه يريد أن يقول لكل انسان:

– هذه المرأة لي.

ولمحتني مرغريت واضطربت. ولكني ابتسمت وحييتها بقلة اكتراث. على أنني ما كدت أفكر في أنها لم تعد لي. وأنها ستنصرف بعد الحفلة في صحبة هذا المغفل حتى صعد الدم إلى وجهي. وتاقت نفسي إلى تعكير هنائهما بأية وسيلة. وانتهزت الفرصة وتقدمت من صاحبة الحفلة لأحييها. كانت فتاة حسناء ناضجة الأنوثة، ترتدي ثوبا يكشف عن كتفيها ويبرز تقاطيع صدرها المغري. تأملتها طويلا.. ولم يسعني إلا الاعتراف بأنها تفضل مرغريت جمالا وتكوينا. ولعل مرغريت كانت تشعر بذلك أيضا.. فإنها لم تحول بصرها عن صديقتها الجديدة وهي تتحدث إلي. لم يكن لأوليمبيا عشيق في ذلك العهد. فقررت أن أتخذها عشيقة لي. وبدأت بأن دعوتها للرقص معي. ولم تنقض بضع دقائق حتى انصرفت مرغريت ووجهها شاحب كوجوه الموتى.

الفصل الرابع والعشرين

وبعد العشاء بدأ المدعوون يلعبون فجلست بجانب أوليمبيا وقامرت بطيش لفت نظرها إلي.. وكنت حسن الحظ فلم تمض بضع دقائق حتى ربحت مائة وخمسين جنيها. ثم تضاعف ربحي.. وتضاعفت خسارة أوليمبيا فكفت عن اللعب فأعطيتها بعض النقود لتواصل اللعب. وحوالي الساعة الخامسة صباحا.. نهض اللاعبون.. وانصرفوا.. فانصرفت معهم.. وكنت أسير في المؤخرة. وأوليمبيا تتبعنا، لتودعنا فانتظرت حتى انصرف آخر المدعوين.. ثم تحولت إليها فجأة. وقلت:

– أريد أن أتحدث إليك.

فقالت:

– غدا.

– كلا.. الآن.

– ماذا تريد أن تقول؟

– هل خسرت؟

– نعم.

– كل ما تملكين؟

فترددت..

- تكلمي.. وكوني صريحة

- نعم.

- إنني ربحت ثلثمائة جنيه. وسيكون لك هذا المبلغ إذا سمحت لي بالبقاء معك.

ووضعت كومة الذهب على المائدة..

قالت:

- ولم هذا العرض؟

- لأنني أحبك..

- كلا. إنك تحب مرغريت، وتريد أن تصبح عشيقي لتثأر منها إنك لا تستطيع أن تخدع امرأة مثلي

- هل ترفضين؟

- نعم..

- فكري في الأمر يا أوليمبيا. هذا مبلغ لا يستهان به.. ولو أنني وسطت بيني وبينك أحد الناس وأرسلت معه هذا المبلغ لقبلت ما أعرضه عليك. ولكنني آثرت التفاهم معك بغير وساطة.. فاقبلي ولا تسألي عن

الأسباب والدوافع.. وفكري فقط في أنك جميلة وأنه لا غرابة في أن أحبك.

كانت مرغريت غانية كأوليمبيا.. ومع ذلك فإنني لم أكن أجسر قط على أن أقول لها في أول مقابلة.. ما قلت لهذه المرأة.. وقد شعرت وأنا أعرض على أوليمبيا هذا العرض بأنني أحتقرها وأنفر منها وقبلت أوليمبيا الصفقة.. واتخذتني عشيقا.. ولكني انصرفت من بيتها في اليوم التالي.. وأنا لا أذكر كلمة واحدة من كلمات الحب التي رأت من واجبها أن تصبها في أذني لأنها أخذت ثمنها. وأمعنت في النكاية بمرغريت. فأهديت عشيقتي الجديدة مركبة وجيادا ومجوهرات. وتورطت في المقامرة وغيرها من الحماقات الخليقة برجل يعشق امرأة مثل أوليمبيا وانخدعت برودنس كما انخدع غيرها. وأيقنت أنني قد نسيت مرغريت نسيانا تاما.

أما مرغريت فإنها راحت تقابل الإهانة بالكبرياء والترفع. ولكني لاحظت أنها تتألم وأنها تزداد نحولا وشحوبا وحزنا وفي بعض الأحيان كانت إذا قابلتني نظرت إلي مستعطفة نظرة لا أتمالك معها من الشعور بالخجل والندم. فأود لو أسألها الصفح ولكن هذا الشعور سرعان ما كان يفسح السبيل لرغبتي الشريرة في الانتقام. وظنت أوليمبيا أنها تفوز بالمزيد من رضاي فراحت تهين مرغريت، وانتهى الأمر بمرغريت أنها كفت عن التردد على الملاهي والمراقص خوفا من أن تلتقي بنا.. ولكني لم أقنع بكل هذا.. وذهبت أذيع عن مرغريت أبشع الشائعات وأوقحها. كنت أشبه برجل ثمل

بنشوة الخمر الردئ.. وانتهى إلى تلك الحالة من الانفعال والهياج التي تستطيع فيها اليد أن ترتكب أية جريمة.. دون أن يكون للعقل ضلع فيها. وضاعف جنوني ما كنت أرى من هدوء مرغريت وكبريائها ورضوخها إلى أن جاءتني أوليمبيا في أحد الأيام وقالت لي أن مرغريت قابلتها وأهانتها.والظاهر أن أوليمبيا كانت البادئة بالإهانة كالعادة.. وأن مرغريت غضبت لكرامتها أخيرا فقابلت الشئ بالمثل.. ومهما يكن من أمر.. فقد أصرت أوليمبيا على أن أكتب إلى مرغريت رسالة لاذعة أطالبها فيها باحترام المرأة التي أحبها، سواء كنت معها أو لم أكن رحبت بهذا الاقتراح.. وأودعت رسالتي كل بذاءة وقسوة ممكنة وقد أيقنت أن اللطمة في هذه المرة أشد من أن تحتملها الفتاة المسكينة دون أن تقول شيئا..ولم تنقض ساعتان حتى دق جرس الباب ودخلت برودنس فسألتها عن الدافع إلى زيارتها غير المنتظرة. فقالت لي إنني لم أترك فرصة لايلام مرغريت في الأسابيع الثلاثة الأخيرة إلا وانتهزتها.. وإن حادث الأمس ورسالة اليوم.. قد أزعجا الفتاة المسكينة. فلزمت فراشها.. وأن مرغريت ترجوني الكف عن هذه الحملة. وتقول أنها لا تقوى صحيا على احتمال هذا السلوك.

فقلت:

– لقد كان للآنسة جوتييه كل الحق في أن تنبذني.. ولكني لا أسمح لها بحال أن تهين المرأة التي أحبها.

فقالت برودنس:

– يا صديقي. إنك ترضخ لتأثير فتاة لا قلب لها ولا ضمير صحيح أنك تحبها. ولكن ذلك لا يبرر أن تهين امرأة لا تستطيع الدفاع عن نفسها.

– إذن فلترسل لي صديقها الكونت وشاهديه.

– إنك تعلم أنها لن تفعل هذا، فدعها وشأنها. إنك لو رأيتها لخجلت من سلوكك حيالها. إنها هزيلة شاحبة، تسعل بشدة. إنها لن تعمر طويلا.

ومدت يدها إلي وأردفت:

– تعال وانظر إليها.. إن زيارتك ستجلب لها السعادة.

– إنني لا أنوي مقابلة الكونت.

– إن الكونت لا يقيم معها.. إنها لا تطيقه.

– إذا أرادت مرغريت مقابلتي. فإنها تعرف مكاني فلتحضر إلي إذا شاءت. أما أنا فلن أضع قدمي في شارع دانتان.

– وهل تترفق بها.. وتقابلها بإحسان؟

ـ نعم..

– أنا واثقة من أنها ستأتي..

– لتأت إذن..

– هل ستخرج اليوم؟

– بل سأقضي المساء هنا..

– سأقول لها ذلك.

ولم أكلف نفسي عناء الكتابة إلى أوليمبيا لأنبئها بأنني لن أذهب إليها هذا المساء ثم خرجت لتناول الطعام.. وعدت على الأثر. وأمرت الخادم بأن يشعل النار في الموقد ولا أستطيع أن أصف المشاعر التي كانت تضطرب في أعماقي.. وأنا أنتظر مرغريت.. فلما دق الجرس في الساعة التاسعة.. استحالت هذه المشاعر إلى انفعال عنيف لم أملك معه إلا أن أستند إلى الجدار لأمنع نفسي من السقوط دخلت مرغريت.. وقصدت إلى غرفة الاستقبال.. ورفعت القناع الرقيق الذي يحجب وجهها..كانت شديدة الشحوب..

قالت:

– قلت إنك تريد أن تراني فجئت.. وأسندت رأسها بين كفيها.. وانفجرت باكية..

فاقتربت منها وسألتها بصوت يرتجف:

– ماذا بك؟!

وخنقتها العبرات.. فضغطت على يدي دون أن تجيب.. واستعادت بعض هدوئها بعد قليل. وقالت:

– لقد آذيتني كثيرا يا أرمان.. ولم ألحق بك أذى قط..

فأجبت وأنا أبتسم بمرارة:

– لم تلحقي بي أذى!

فاستدركت:

– إلا ما أرغمتني عليه الظروف..أما أنت فمنذ عودتك يا ارمان وأنت تعمل على تجريحي حتى أصبحت لا أقوى على احتمال شيئا من الآلام. فهلا رحمتني. وهل رأيت أن للرجال في الحياة رسالة أنبل من البطش بامرأة عليلة حزينة مثلي إليك يدي، فالمسها..إنني محمومة، وقد غادرت فراشي وجئتك،..فتناولت يدها..كانت تحترق وترتجف، فحركت مقعدها حتى أدنيته من الموقد.

قلت لها:

– كيف استطعت أن تخدعيني يا مرغريت. أنا الذي أحببتك كما لم يحب الرجل امرأة من قبل؟

– لا تتحدث عن هذا يا ارمان. إنني ما جئت لأتحدث عن هذا إنما جئت لكي أشد على يدك للمرة الأخيرة.

إن لك عشيقة شابة حسناء. فكن سعيدا معها. وانسني.

– وأنت. إنك سعيدة بغير شك؟

– هل يبدو علي أنني سعيدة يا ارمان؟

– إذا لم تكوني سعيدة. فإن الذنب في ذلك ذنبك وحدك.

– كلا يا صديقي. إن الظروف كانت أقوى من إرادتي.. وسوف تغفر لي متى عرفتها

– ما هي هذه الظروف.. ولماذا لا تحدثيني بها الآن؟

– لأن ذلك لا يمكن أن يرد علينا سعادتنا المستحيلة.. ربما يفرق بينك وبين أشخاص ينبغي ألا تفترق عنهم.

– من هم أولئك الأشخاص..

– لا أستطيع أن أذكرهم لك الآن..

– إذن فأنت تكذبين

فنهضت واقفة.. وسارت نحو الباب..كان من المستحيل أن أشهد هذا الحزن البليغ الصامت دون أن أتأثر.. فأسرعت إليها ووقفت بينها وبين الباب وهتفت:

– إنك لن تذهبي..

– لماذا؟

– لأنني ما زلت أحبك.. وسأبقيك هنا..

– لكي تطردني غدا؟! كلا.. هذا مستحيل.. لقد افترقت مصائرنا، فإذا حاولت أن تجمع بينها فقد تحتقرني.. أما الآن.. فإنك لا تستطيع فقط إلا أن تكرهني..

– كلا يا مرغريت.. كلا.. سأنسى كل شئ.

فهزت رأسها في ارتياب ولكنها أجابت:

– ألست أطوع لك من العبد؟! افعل بي ما تشاء فإنني لك.

وخلعت قبعتها ومعطفها.. وأخذت تحل أزرار ثوبها.

وفي هذه اللحظة انتابتها سعلة حادة جافة.. فوضعت منديلها على فمها. واستطردت:

– قل للسائق أن يعود بالمركبة.

فانطلقت لإنفاذ أوامرها. ولما عدت وجدتها ممددة أمام الموقد وهي ترتجف وأسنانها تصطك. فنزعت عنها ثيابها وحملتها إلى الفراش ورددت الحرارة إلى بدنها بقبلاتي. كانت ليلة غريبة أفرغت فيها مرغريت كل حياتها في قبلات.. وملكتني فيها نشوة أحببت إلى أن أقتلها حتى لا يملكها سواي. وصحوت عند الفجر.. فوجدت مرغريت شديدة الشحوب.. والدموع تنحدر من عينيها في سكون وتستقر على وجنتيها كحبات الماس.

قلت لها في همس:

– هل نذهب يا مرغريت؟ هل نبرح باريس؟

فأجابت في فزع:

– ذلك يجلب علينا شقاء لا يحتمل

ولما انصرفت. شعرت بالفراغ الذي تركته في قلبي.وانقضت ساعات بعد انصرافها.. وأنا لا أزال أتأمل الفراش الذي تركت فيه طابع جسدها. وأشعر بقلبي نهبا موزعا بين الحب والغيرة. وفي الساعة الخامسة كنت في شارع دانتان بغير أن أشعر طرقت الباب. ففتحته نانين قالت في ارتباك:
_ إن سيدتي لا تستطيع أن تستقبلك.

– لماذا؟

– لأن الكونت هنا.. وقد أمرني بألا أسمح لأحد بالدخول.

_ لقد نسيت

وعدت إلى منزلي وأنا أترنح كالثمل. قلت لنفسي أن هذه المرأة تسخر مني. وإنها تهمس الآن في أذن الكونت ذات الكلمات التي سمعتها منها بالأمس، ثم تناولت ورقة مالية ذات خمسمائة فرنك. وأرسلتها مع هذه الكلمات:

"إنك عجلت بالانصراف هذا الصباح فأنستني العجلة أن أنقدك أجرك".

وفي المساء.. جاءني أحد الغلمان برسالة. ففضضتها.

ولم أجد بها سوى الورقة المالية ذات الخمسمائة فرنك

– من أعطاك هذه الرسالة؟

فأجاب:

– سيدة كانت تهم بالسفر، وقد أمرتني أن أحملها إليك بعد أن يتحرك القطار..

فهرولت إلى بيت مرغريت.. وأجابني البواب:

– إنها رحلت إلى انجلترا في الساعة السادسة..

وهكذا لم يبق حب أو بغض يغريني بالبقاء في باريس..

وكان أحد أصدقائي يتأهب لرحلة طويلة في الشرق.. فاستأذنت أبي في مرافقته فأذن لي.وحدث عندما وصلنا إلى الاسكندرية أنني صادفت هناك موظفا بالسفارة الفرنسية كنت قد قابلته مرارا في بيت مرغريت فأنبأني بمرض هذه الفتاة المسكينة..

الفصل الخامس والعشرين

تعب ارمان من الكلام، فوضع يديه حول رأسه، وأغمض عينيه إما ليفكر، وإما ليلتمس النوم. وبعد بضع دقائق، لاحظت أن أنفاسه تتردد ببطء وانتظام. فأدركت أنه نام، وتناولت الصفحات التي دفع بها إلى، وقرأت فيها ما يلي:

"نحن اليوم في الخامس عشر من شهر ديسمبر..

"كنت أتألم في الأيام الأخيرة، فلزمت فراشي هذا الصباح، والجو مكفهر، وأنا حزينة، ولا أجد بجانبي..

إنني أفكر فيك يا ارمان.. وأنت.. أين أنت في الساعة التي أكتب فيها هذه السطور؟؟

إنك بعيد عن باريس.. بعيد جدا كما قيل لي. وربما قد نسيت صاحبتك مرغريت.. فكن سعيدا يا صديقي.. يا من أدين له باللحظات القليلة التي سعدت بها في حياتي.إنني لم أستطع كبح رغبتي في أن أقدم إليك ايضاحا عن سلوكي وقد كتبت إليك رسالة.. ولكن الرسالة التي تكتبها فتاة مثلي.. قد تعتبر كذبة ما لم يدمغها الموت بطابع الصدق.. فتصبح اعترافا لا رسالة..

إنني اليوم مريضة.. وقد أموت بهذا المرض فطالما حدثني قلبي. بأنني سأموت في عنفوان الشباب.. وقد ماتت أمي بالسل الرئوي.. وطبيعة حياتي كان شأنها أن تشجع هذا الداء.. وهو الإرث الوحيد الذي ورثته عنها، ولكني لا أريد أن أموت قبل أن تصحح رأيك في.. وأجعلك تصدر علي حكما صادقا.. إذا صح وكنت لا تزال تفكر في الفتاة المسكينة التي أحببتها قبل رحيلك.

أنت تذكر يا ارمان.. كيف كان قدوم أبيك مفاجأة لنا.. وتذكر الرعب الغريزي الذي استولى علي يومئذ.. وما كان بينك وبينه في المقابلة الأولى..

ففي اليوم التالي.. بينما كنت أنت في باريس تبحث عن أبيك.. جاءني رجل.. وقدم إلي رسالة من مسيو ديفال.

وفي هذه الرسالة – وأنت تجدها هنا – توسل إلى أبوك بلهجة جدية أن أقصيك عن المنزل في اليوم التالي بأي عذر ممكن.. وأن أستقبله، لأنه يريد أن يتحدث إلي..

ولعلك تذكر كيف ألححت عليك أن ترحل إلى باريس في اليوم التالي.

ولم تنقض ساعة بعد رحيلك حتى جاء أبوك.. ولا أحدثك عن الأثر الذي تركه عبوسه. وتجهمه في نفسي

كان أبوك مشبعا بالنظرات العتيقة التي تقول بأن الغانية مخلوقة لا قلب لها ولا عقل. وأنها نوع من الآلات التي تشتري بالذهب.. وأنها كالآلات الحديدية.. قد تجرح اليد التي تقدم الوقود.. وتهلك بغير شفقة أو رحمة الصانع الذي يجعلها تعيش وتعمل.

كانت الرسالة التي كتبها إلي تنطوي على الاحترام.. أما مقابلته فكانت غير ذلك.

كان مرتفع الرأس، منتفخ الأوداج. مهددا. متوعدا. مما حملني على أن أذكره بأنني في بيتي. وأنه ليس هناك ما يرغمني على أن أقدم إليه حسابا عن حياتي وأنني لم أستقبله إلا بدافع حبي وإخلاصي لولده.

وعندئذ هدأت ثورته قليلا. ثم قال أنه لن يسمح لولده بعد الآن بأن يورد نفسه موارد الخراب والدمار من أجلي. وأنني فاتنة حقا. ولكن ينبغي ألا أتخذ من فتنتي معولا لهدم مستقبل أحد الشبان باغرائه على تبذير ما يملك وما لا يملك في سبيلي

ولم يكن لدي إلا رد واحد. ولا شك أنك توافقني عليه. وذلك هو أن أبرز الأدلة على أنني لم أدخر أية تضحية مهما عظمت. في سبيل أن أبقى مخلصة لك.. دون أن أحملك من النفقات أكثر مما تستطيع. وأبرزت له وثائق البيع والرهن. وقلت له أنني أبيع أثاثي كله لا سدد ديوني وأعيش معك دون أن أكون عبئا ثقيلا عليك

وحدثته عن سعادتنا وآمالنا. وانتهى به الأمر إلى الاقتناع. فبسط إلي يده، وسألني المعذرة على غلظته وقسوته.

ثم قال:

– ما دام ذلك كذلك يا سيدتي.. فإنني لا أستعين بالتهديد.. بل أستعين بالضراعة، لألتمس منك تضحية أعظم من كل تضحية أخرى بذلتها في سبيل ولدي.

فارتجفت.. واقترب أبوك مني.. وتناول يدي واستطرد بلهجة رقيقة:

– لا يحزنك ما سوف أقول يا ابنتي.. وافهمي فقط أن للحياة في بعض الأحيان ضروراتها القاسية على القلب.. ولكنها ضرورات لابد من الخضوع لها والتسليم بها.

إنك فتاة طيبة.. وفي قلبك من العواطف الكريمة ما لا تعرفه الكثيرات من النساء.. اللاتي ربما يحتقرنك، لأنهن لا يعرفن قيمتك.. ولكن فكري.. في أنه إلى جانب العشيقة.. توجد الأسرة وإلى جانب الحب.. توجد الواجبات. وانه بعد فورة الشباب يأتي الوقت الذي يتعين فيه على الرجل لكي يكون محترما.. أن يتربع بثبات في مركز خطير.. وولدي لا يملك ثروة تذكر.. وعلى ذلك فإنه على استعداد للنزول لك عن الارث الذي خلفته له أمه. فإذا هو قبل التضحيات التي توشكين الأقدام عليها من أجله.. أصبح من واجبه كرجل يعرف الشرف والكرامة أن يقابل التضحية بمثلها. وينزل لك عن القليل الذي يملكه ليقيك في المستقبل شر

الحاجة الملحة. ولكنه لا يستطيع أن يقبل تضحيتك، لأن الناس الذين يعرفونك يردون هذا القبول إلى أغراض غير شريفة يجب ألا تلوث الاسم الذي نحمله.. ولن يسأل الناس.. هل يحبك ارمان.. وهل تحبينه.. وهل في هذا الحب سعادته.. وعودتك إلى سواء السبيل.. ولكنهم سيرون فقط أن ارمان ديفال قد رضي بأن تبيع إحدى الغانيات – ومعذرة إذا استخدمت هذه الكلمة فما أبغي غير الصراحة – سيرى الناس فقط ان ارمان ديفال قد رضي بأن تبيع إحدى الغانيات كل ما تملك من أجله.

ثم لابد أن يأتي بعد ذلك يوم الندم.. فتندمان معا.. وتشعران معا.. بأنكما مغلولان بسلسلة من حديد لا تستطيعان فصمها.. وعندئذ ماذا تصنعان؟! تكوين أنت قد فقدت جمالك.. ويكون ولدي قد فقد مستقبله.. وأكون أنا أبوه قد فقدت نصف العطف الذي رجوته من ولدي في شيخوختي.

إنك في مقتبل العمر.. وعلى جانب كبير من الفتنة.. ولا شك أنك ستجدين العزاء والسلوى.. وستفكرين بهذا العمل الكريم عن بعض ذنوب الماضي..

إن ارمان قد نسيني منذ عرفك.. وقد كتبت إليه أربع مرات. فلم يفكر في الرد علي.. ولو اختارني الموت ما علم بذلك. ومهما يكن عزمكما على الحياة معا.. فإن ارمان الذي يحبك لن يطيق العزلة التي تحتمها عليكما قلة ثروته.. ومن يعلم ماذا يفعل عندئذ؟

إنه تورط في المقامرة – كما علمت – دون أن يقول لك – وأنا واثق من ذلك،ولكن هبي أنه تورط في المقامرة في ساعة جنون.. ثم تورط في الدين.. واضطرني أن أنقذ شرفه بتضحية المال الذي ادخرته ليكون مهرا لأخته. وملاذا لي في شيخوختي.. فماذا يحدث عندئذ؟

ثم هل أنت واثقة من أن الحياة التي هجرتها من أجله لن تجتذبك إليها مرة أخرى؟

هل أنت واثقة من أنك لن تتخذي من دونه عاشقا آخرا؟!

فكري في كل هذا يا سيدتي.. إنك تحبين ارمان، فبرهني على ذلك بالوسيلة الوحيدة التي بقيت لك الآن.. برهني على ذلك.. بتضحية غرامك لمستقبله..

إن الصلة بينكما لم تسفر عن شر أو أذى حتى الآن.. ولكنها ستسفر عنهما حتما في المستقبل.. وقد يحدث أهول مما أتوقع.. قد يغار ارمان في أحد الأيام من رجل يحبك.. فيبارزه ويقتل، وعندئذ كم سيؤلمك منظر أبيه عندما يسألك حسابا عن حياة ولده.

إنني لم أذكر كل شئ يا بنيتي. ولكن يجب أن تعلمي كل شئ..

إن لي ابنة.. وهي صبية حسناء.. طاهرة كالملائكة..

وابنتي تحب.. وهي كذلك قد وضعت في الحب.. كل آمالها وأحلامها..

إنني كتبت لأرمان عن كل هذا، ولكنه كان في شغل بك عن كل شئ آخر.

خلاصة القول أن ابنتي توشك أن تتزوج بالشاب الذي تحبه.. وهذا الشاب ينتمي إلى أسرة شريفة نبيلة تتوقع أن ترى في أسرتي كل شرف ونبل.

وقد انتهى إلى الشاب وأسرته نبأ الحياة التي يحياها ارمان في باريس فصرحوا بأنهم سيضطرون إلى العدول عن هذا الزواج إذا استمر ارمان على هذا الحال. فبين يديك إذن مستقبل صبية لم تلحق بك أذى ولها كل الحق في أن تطمع في السعادة. فهل من حقك.. وهل تجدين في مقدورك أن تقوضي هذه السعادة؟

أستحلفك بحبك وتوبتك يا مرغريت أن تمنحي ابنتي سعادتها.

* * *

أضغيت إليه يا صديقي.. وبكيت في صمت. وما زلت أبكي كلما طافت بذهني هذه الكلمات.

بل قلت لنفسي ما تردد أبوك في أن يقوله لي. وما قرأته على شفتيه عشرين مرة.

قلت لنفسي: ما أنا أولا وأخيرا إلا بغي. ومهما فعلت فسيظل غرامي يلبس ثوب الطمع.. وسيظل ماضي ينكر على كل حق في مستقبل شريف سعيد.

كانت لهجة أبيك ومشاعره النبيلة. وما ينتظرني من تقديره أولا وتقديرك أخيرا. كل ذلك حرك في أعماقي عواطف لا عهد لي بها.. جعلتني أرتفع في نظر نفسي.

وعندما تذكرت أن هذا الشيخ النبيل الذي جاءني ضارعا من أجل مستقبل ابنته. سوف يطلب إلى ابنته في أحد الأيام أن تذكرني في صلواتها. هانت علي سعادتي. وهان على هنائي. وطرأ علي تحول جعلني أفخر بنفسي.

قلت لأبيك وأنا أجفف دموعي:

– حسنا يا سيدي.. هل تعتقد بأنني أحب ابنك؟

– نعم.

– هل تعتقد بأنني جعلت من هذا الحب أمل حياتي وحلمها وكفارتها؟

– أعتقد ذلك.

– إذن قبلني يا سيدي كما تقبل ابنتك. وأقسم لك أن هذه القبلة وهي القبلة الطاهرة الوحيدة التي تلقيتها. سوف تشدد عزيمتي على قهر حبي. ولن ينقضي أسبوع حتى يعود إليك ولدك. وقد شفي من غرامه إلى الأبد.

فقال وهو يقبل جبيني:

– إنك فتاة نبيلة وسيجزيك الله عما تصنعين. أما ولدي فأخشى ألا تنالي منه جزاء.

– اطمئن يا سيدي.. فإنه سوف يمقتني.

وكان لابد أن أضع بيني وبينك حاجزا مانعا لكلينا، فكتبت إلى برودنس أقول لها أنني قبلت ما يعرضه على الكونت دي، وإنني سأتناول طعام العشاء معهما.

وألصقت غلاف الرسالة.. وقدمتها إلى أبيك دون أن أذكر له مضمونها.. ورجوته أن يسلمها إلى صاحبتها في باريس على أنه سألني عن مضمونها فأجبته:

– إنها تتضمن سعادة ولدك.

فقبلني مرة أخرى.. وشعرت بدمعتي وفاء تتساقطان على جبيني وخيل إلي أن هاتين الدمعتين قد غسلتا ما فرط من ذنوبي وخطاياي.

وانصرف مسيو ديفال في مركبته.

أما أنا فإنني امرأة على كل حال.. ولما رأيتك لم أتمالك من البكاء، ولكني لم أتحول عن عزمي.

فترى هل أصبت..؟

ذلك ما أسائل عنه نفسي الآن وأنا مريضة طريحة فراش قد لا أبرحه وأنا على قيد الحياة.

إنك شاهد عدل على ما كنت أقاسي عندما دنت ساعة الفراق ولم يكن والدك معنا لكي يشدد عزيمتي. وقد كدت مرارا بدافع الخوف من

غضبك واحتقارك، أن أعترف لك بكل شئ.. ولكن الله عصمني.. وشد عزيمتي.. فكان ذلك دليلا على أنه قبل تضحيتي.

ولما قابلت الكونت في المساء. لم أجسر على التفكير فيما أنا مقدمة عليه، خوفا من أن تخونني شجاعتي.. من ذا الذي كان يتوقع هذا؟ من ذا الذي كان يتوقع أن يوما سيأتي.. تشعر فيه مرغريت جوتييه بأشد الألم إذا اتخذت لنفسها عشيقا جديدا؟

وأسرفت في الشراب لكي أنسى.. ولما استيقظت في الصباح وجدتني مع الكونت.

تلك هي الحقيقة يا صديقي.. فاصدر حكمك علي.. واغفر لي كما غفرت لك اساءاتك إلي منذ ذلك اليوم.

وأنت تعلم ما حدث بعد ذلك.. شئ واحد لا تعلمه.. هو أنني قاسيت كثيرا منذ افترقنا.

وقد علمت أن أباك ذهب بك.. ولكني ارتبت كثيرا في أنك تستطيع الحياة بعيدا عني.. ولما قابلتك في الشانزلزيه بعد ذلك.. استولى علي الانزعاج ولكني لم أدهش.

ثم بدأت سلسلة الأيام التي حمل إلى كل يوم منها.. إهانة جديدة منك، ولكني كنت أرحب بتلك الإهانات ليس فقط لأنني وجدت فيها

الدليل على حبك.. وإنما كذلك لأنه خيل إلى أنك كلما أسرفت في اضطهادي.. ازددت سموا في نظرك عندما تعرف الحقيقة كلها.

فلا يدهشك هذا الاستشهاد المرح يا ارمان.. فإن حبك فتح قلبي لأنواع من العواطف النبيلة لم يكن لي بها عهد من قبل

ولا شك أن برودنس قد حدثتك، كيف وجدت من الضروري لي أن أستعين على حياتي الجديدة بالاسراف في الشراب واللهو والعبث لكي أنسى.. ولكيلا أجن.

كنت أرجو بهذا الاسراف أن أقتل نفسي بسرعة.. وأعتقد أن رغبتي ستتحقق عما قريب.. فقد ساءت صحتي كثيرا.. ويوم أرسلت إليك برودنس في طلب الصفح.. كنت منهوكة القوى جثمانيا وعقليا.

ولست أذكرك يا ارمان كيف كافأتني على آخر دليل من أدلة الحب قدمته إليك. ووسط أية فضيحة أخرجت من باريس المرأة التي لم تستطع – حتى وهي تحتضر – أن تصم أذنيها عن ندائك.

إنك طالبتها بليلة غرام، فظنت في جنونها أنها تستطيع أن تصل الماضي بالحاضر.. ثم ما لبثت أن فطنت إلى خطئها

وقد كنت أنت على حق فيما فعلت بعد ذلك. ولكن ليالي لم تكن دائما غالية الثمن هكذا يا ارمان؟

إنني فررت إذن من باريس، وتركت كل شئ، فاحتلت أوليمبيا مكاني عند الكونت دي، وقيل لي فيما بعد أنها تفضلت فذكرت له أسباب رحيلي.

أما أنا فإنني رحلت إلى لندن. حيث يوجد الكونت دي ج. وهو من أولئك السادة العظام الذي يفتحون لنا قلوبهم من ركن واحد وجيوبهم من جميع الاركان. وقد رحب بي، ولكنه كان عشيق امرأة ذات مكانة في المجتمع هناك، فأشفق أن يرانا الناس معا، وقدمني إلى بعض أصدقائه، وهؤلاء دعوني لتناول طعام العشاء، ثم اصطحبني أحدهم إلى منزله.

ماذا كان في استطاعتي أن أفعل غير هذا يا صديقي؟

هل أقتل نفسي؟

إنني لم أفعل ذلك حتى لا أحمل ضميرك وزر انتحاري، وبعد. لماذا ينتحر الإنسان وهو يرى نفسه أدنى ما يكون إلى الموت؟

وهكذا تدرجت إلى الحالة التي يصبح فيها الإنسان جسما بلا روح.. وهيكلا بلا عقل أو وجدان.. وبقيت كذلك فترة من الوقت.. ثم عدت إلى باريس.. وسألت عنك فقيل لي أنك ذهبت في رحلة طويلة.

وبرحيلك.. لم يبق لي ما يمنعني من الانحدار.. فعدت إلى الحياة التي كنت أحياها قبل أن أعرفك.. وحاولت أن أجتذب الدوق.. ولكنه أبى أن ينسى أو يصفح.. وذلك شأن الشيوخ جميعا.. فإنهم أضيق الناس صدرا

وأقلهم صبرا.. ولعل ذلك لأنهم يشعرون أكثر مما يشعر غيرهم بأنهم ليسوا خالدين.

واستبد بي المرض. وزاد شحوبي ونحولي وحزني. ولعلك تعلم أن أولئك الذين يشترون الحب. يفحصون البضاعة قبل الاختيار.. وفي باريس نساء أقوى مني جسما. وأصح بدنا وأشد مرحا، فلا عجب إذا تركت في زوايا النسيان.

ذلك هو الماضي.

أما الآن.. فإنني طريحة الفراش.. وقد كتبت إلى الدوق أسأله نقودا، لأنني لا أملك شيئا.. والدائنون لا يكفون عن ازعاجي. فترى هل يجيبني الدوق؟

لماذا أنت لست في باريس يا ارمان؟! لكي تزورني وترفه عني..

٢٠ ديسمبر:

الجو مخيف. وأنا وحيدة في المنزل.

منذ ثلاثة أيام.. والحمى تنهب جسدي. وتمنعني من الكتابة إليك. ولكن لا جديد يا صديقي.

وفي كل يوم أنتظر رسالة منك. ولكن بغير جدوى. فما أقدر الرجال على عدم الصفح.

لم أتسلم ردا من الدوق. وقد عادت برودنس إلى روحاتها وغدواتها بين المنزل وحوانيت الرهون.

أما أنا فإنني مازلت أنفث دما.. وسيؤلمك أن تراني.

إنك سعيد الحظ يا صديقي لأنك تعيش في جو دافئ، وليس هناك شتاء مثلج يرزح فوق صدرك.

لقد نهضت قليلا.. ونظرت من النافذة.. ورأيت باريس المتحركة النشيطة التي أشعر بأنني انتزعت منها انتزاعا ووقع بصري على أناس أعرفهم، فرأيتهم يمرون ببابي فرحين مسرعين مغتبطين، ولكن أحدا منهم لم يرفع عينيه إلى نافذتي.

إنني مرضت مرة قبل الآن.. ولم تكن تعرفني، ولكنك كنت تستفسر عني كل يوم.

وهاأنذا مريضة.. بعد أن قضينا معا ستة شهور.. أحببتك في خلالها حبا لم تنطو عليه جوانح امرأة قبلي.. وها أنت ذا بعيدا عني لا تبعث لي ولو بكلمة عزاء.

٢٥ ديسمبر

حظر علي الطبيب أن أكتب كل يوم.. والواقع.. إن ذكرياتي تضاعف الحمى.. ولكن تسلمت أمس رسالة أنعشتني ماديا بما تضمنت.. وحسيا بما حملت.

وقد جاءتني هذه الرسالة من أبيك. وإليك مضمونها.

سيدتي:

علمت الآن أنك مريضة.. ولو كنت في باريس لاستفسرت عنك بنفسي.. ولو كان ولدي على مقربة مني لأنبته عني.. فاسمحي لي يا سيدتي أن أكتب إليك معبرا عن ألمي لمرضك وأملي في شفائك.

سيذهب صديقي الحميم مسيو (هـ) إلى منزلك.. فتفضلي بمقابلته.. فقد أوفدته إليك في مهمة أنتظر نتيجتها بفروغ صبر.

تلك هي رسالة أبيك.

إن أباك رجل نبيل الخلق.. كبير القلب.. فأحبه كثيرا يا ارمان، فما أقل الرجال الجديرين بالحب في هذا العالم.

وقد جاء مسيو (هـ) هذا الصباح. وقدم إلي باسم أبيك خمسة آلاف فرنك. فأردت أولا أن أرفضها.. ولكنه أكد لي أن هذا الرفض سوف يؤلم مسيو ديفال، الذي كلفه بأن يمدني من المال بالقدر الذي أريد.

وقد قبلت هذا المبلغ. الذي لا يعتبر من أبيك على سبيل الاحسان.

فإذا مت قبل عودتك يا ارمان. فدع أباك يقرأ ما كتبته عنه وقل له أن الفتاة التعسة التي كتبت هذه السطور. قد ابتهلت إلى الله من أجله وذرفت عيناها دموع الشكر والوفاء وهي تكتبها.

٤ يناير

قضيت بضعة أيام مؤلمة. ولم أعلم قبل الآن. إن الجسم يستطيع أن يحتمل كل هذه الآلام.

لقد أصبح جسمي قسمة عادلة بين الحمى.. وهذا السعال المخيف.

لقد امتلأت غرفتي بالحلوى. والهدايا المختلفة التي حملها إلى أصدقائي وبين هؤلاء طائفة من الشباب. يرجون بغير شك أن أصبح عشيقتهم فيما بعد. ولو أبصروا ماذا فعل المرض بي لولوا الأدبار فزعا مني؟

٨ يناير:

لو عرض الآن للبيع هذا الجسم الذي كان في وقت ما أثمن من كنز. فترى كم يساوي؟

لابد أننا ارتكبنا كثيرا من الآثام قبل أن نولد. أو أننا سنسعد بالكثير من السعادة بعد أن نموت.. وإلا ما احتوت الحياة كل هذا العذاب وهذه الآلام.

١٢ يناير:

مازلت أتألم وأقاسي.

وقد أرسل الكونت دي مبلغا من المال أمس ولكني لم أقبله..

إنني لا أريد شيئا من هذا الرجل.. فهو السبب في أنك لست الآن بجانبي.

أواه.. ما كان أسعد الأيام التي قضيناها في بوجيفال!! أين هي تلك الأيام؟

إذا قدر لي أن أبرح فراشي على قيد الحياة.. فسأحج إلى البيت الذي أقمنا فيه معا، وأبقى هناك حتى أموت.

٢٥ يناير:

لم يغمض لي جفن منذ إحدى عشرة ليلة.

إنني أختنق وأناضل في سبيل الهواء.

ويخيل إلي في كل لحظة أنني سأموت.

وقد حظر علي الطبيب أن ألمس القلم. ولكن جوليا ديبار التي تسهر على قد سمحت لي بأن أكتب إليك هذه السطور القلائل.

أفلا تأتي قبل أن أموت.

هل انتهى حقا كل شئ بيننا؟

يخيل لي أنك إذا جئت فإنني أبرأ من سقمي. ولكن لماذا أطلب البرؤ ولأية غاية؟

٢٨ يناير:

أيقظتني اليوم ضجة شديدة. وسمعت في الغرفة المجاورة أصوات رجال عديدين. وصوت جوليا وهو يحاول أن يرتفع على تلك الأصوات. ثم أقبلت جوليا وهي تبكي.

قالت أن الدائنين يريدون توقيع الحجز على الأثاث.. فأجبتها بأن الحق.. يجب أن يأخذ مجراه.

ودخل المحضر غرفتي وقبعته في يده. وفتح جميع الأدراج. ووضع قائمة بما وجد. وأحمد الله على أن رحمة القانون قد أعفت فراشي من الحجز فلم يسجله المحضر في القائمة.

وتفضل المحضر وقال لي أنني أستطيع المعارضة في الحجز خلال أسبوع. ثم ترك أحد الدائنين لحراسة الأثاث. وانصرف

فيا إلهي. ماذا سيكون من أمري؟

٣٠ يناير:

تسلمت اليوم رسالتك. وكنت في أشد الحاجة إليها.. ولكن ترى هل يصلك الرد في الوقت المناسب؟!

إن سعادتي اليوم قد أنستني ما قاسيت في الأسابيع الستة الأخيرة حتى أنني بدأت أطمع في الشفاء، وأطمع في أن أراك وأطمع في أن أرى الربيع مرة أخرى.

٤ فبراير:

لقد عاد الكونت دي ج وهو حزين، لأن عشيقته خدعته. ولكن حزنه لم يمنعه من سداد ديني وصرف الدائن الذي بقى لحراسة الأثاث وقد حدثته عنك، ووعد بأن يحدثك عني.

وأمس. أرسل الدوق يستفسر عني. ثم جاء اليوم لزيارتي ولا أفهم ما الذي يبقي هذا الرجل على قيد الحياة؟

إنه قضى بالقرب مني ثلاث ساعات ولم ينطق بأكثر من عشرين كلمة ولكنه بكى عندما رأى شحوبي وهزالي. ولا شك أنه تذكر ابنته، فكأنه رآها تموت مرتين.

ولم يقل لي كلمة عتاب، حتى خيل إلي أنه شعر بالارتياح، حين رأى العلة تأكل جسدي وتحصد شبابي. وشعر بالكبرياء لأنه صحيح رغم شيخوخته، وأنا أموت رغم شبابي.

نعم يا صديقي.. إنني أدنو من الموت.. ولست أندم على شئ كما أندم على أنني أصغيت إلى أبيك ونزلت على إرادته.

ولو علمت أنني لن أعيش أكثر من عام.. لما سمحت لأية قوة أن تحول بيني وبين قضاء هذا العام في أحضانك. حتى أذامت وجدت صديقا أضع يدي في يده.

ولكن تلك هي إرادة الله.

٥ فبراير

شعرت أمس بانطباق شديد. وودت لو أقضي المساء في أي مكان إلا هذا البيت.

واليوم قد جاء الدوق لزيارتي.. فخيل لي عندما رأيت هذا الشيخ الذي غفل عنه الموت أن مرآه يدنيني من الموت وبالرغم من الحمى التي تلهب جسدي.. قد طلبت إلى جوليا أن تذهب بي إلى مسرح (الفودفيل) فألبستني ثيابي.. وصبغت وجنتي وشفتي لكيلا أبدو كجثة أفلتت من القبر.. وأجلستني في المقصورة التي التقينا فيها لأول مرة. ولم أحول بصري طول الوقت عن المقعد الذي تعودت أنت أن تجلس فيه.

وأخيرا حملت إلى البيت وأنا بين الموت والحياة.

* * *

وفيما يلي رسائل جوليا ديبار:

١٨ فبراير:

مسيو ارمان..

منذ ذهبت مرغريت إلى المسرح.. وهي أشبه بجثة لا حراك فيها. وقد احتبس صوتها.. وشلت أعضاؤها.. ومن المستحيل أن أصف لك ما تعانيه هذه البنية المسكينة.وهي تهذي دائما.. ولكنها في صحوها أو هذيانها لا تردد غير اسمك.

وقد أكد الطبيب أنها لن تعيش طويلا. وكف الدوق عن السؤال عنها. وامتنعت برودنس عن زيارتها بعد أن وجدت أنها لا تستطيع أن تفيد منها.

كل انسان قد هجرها. حتى الكونت دي ج.. فإنه اضطر أن يرحل إلى لندن. ولكنه ترك لها بعض المال قبل رحيله.

لقد فعل هذا الرجل الكريم من أجلها كل ما يستطيع. ولكن ذلك لم يمنع بعض الدائنين من توقيع الحجز على أثاثها مرة أخرى. وهم الآن ينتظرون موتها بفروغ صبر لكي يبيعوا الأثاث..

إنك لا تستطيع أن تتصور التعاسة البالغة التي تحيط بهذه الفتاة المسكينة وهي على فراش الموت.

وهي لا تزال تشعر بما يقع حولها. ودموعها الكبيرة تنحدر ببطء وسكون على وجهها الشاحب الهزيل الذي لو رأيته الآن ما عرفت فيه الوجه الجميل الساحر الذي طالما أحببته.

وقد استحلفتني أن أواصل الكتابة إليك عندما يمنعها الضعف وها هي الآن تنظر إلي ولكنها لا تستطيع أن تراني، فقد غشيت عينيها سحابة الموت.

١٩ فبراير (منتصف الليل)

هذا يوم محزن يا مسيو ارمان. فقد تعذر على مرغريت أن تلتقط أنفاسها.. ونصح لها الطبيب أن تستقدم أحد القسس لكي تعترف بين يديه.. وتتقبل الغفران.

ودعتني مرغريت إليها.. وطلبت إلي أن أفتح خزانة الثياب ثم أشارت إلي ثوب أبيض بسيط.. وقبعة عريضة وقالت:

– إنني سأموت بعد أن اعترف بخطاياي.. فمتي مت.. فألبسيني هذا الثوب وهذه القبعة.

وأقبل القس بعد ذلك ودخل وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى. ولعله علم في منزل من هو، فقالت له مرغريت:

– ادخل يا أبي. ولا تخف.

وقضى القس عندها بعض الوقت ثم خرج وقال لي وهو ينصرف

– إنها عاشت بغيا وستموت قديسة.

٢٢ فبراير:

انتهى كل شئ.. ولم يتعذب شهيد كما تعذبت مرغريت. فقد نهضت في فراشها مرتين أو ثلاث كأنما لتمسك بروحها وتستردها قبل أن تذهب إلى بارئها.

وقد نطقت باسمك كذلك مرتين أو ثلاث ثم سالت من عينيها دمعتان وأسلمت الروح.

وناديتها فلم تجب. فأغمضت عينيها.. وقبلت جبينها.

مسكينة مرغريت.. ليتني كنت قديسة لكي تشفع لها قبلتي..

٢٣ فبراير

شيعت جنازتها اليوم.. وبكاها بعض أصدقائها باخلاص.

ولما حمل التابوت في الطريق إلى (مونمارتر) لم يتبعه إلا رجلان. الكونت والدوق.. وكان يسير متكئا على ساعد خادمه.

الفهرس